PHONES. 49747-42948

REGD. NO LW/NP 59

Albaas-el-islami

NADWAT-UL-ULAMA, LUCKNOW.(INDIA)

صدر حديثاً :

الطريق إلى السعادة والقيادة

للدول والمجتمعات الاسلامية الحرة

كتاب جديد صدر حديثاً لسماحة الشيخ العلامة أبي الحسن علي الندوى يخاطب فيه الدول والمجتمعات الاسلامية الحرة، ويبين لها الطريق إلى السعادة و القيادة .

إن الكتاب بمجموعة ١٢/ محاضرة ألقاها سماحة المؤلف فى باكستان بمناسبة حضوره هناك فى المؤتمر الاسلامى الآسيوى الأول الذى عقدته رابطة العالم الاسلامى (بمكة المكرمة) فى يوليو ١٩٧٨م فى كراتشى .

تحدث فيه إلى كل قطاع من الناس من رجالات القانون و العلم و الفكر و خبراء التعليم و التربية و أساتذة الجامعات و طلابها و رجال الحكم و المناصب الرسمية العليا إلى الجماهير العامة من المسلمين المخلصين .

وجه فيه نداء عاماً للانتفاضة الاسلامية التى تترقب يقظة المسلمين وصحوتهم .

و كل ذلك فى أسلوب خطابى جميل ، و تعبير مؤثر جذاب .

الناشر : مؤسسة الرسالة - بيروت

ويطلب : من مكتبة دار العلوم التجارية

بندوة العلماء ص . ب ٩٣ لكهنؤ (الهند)

قام بالطبع و النشر جميل أحمد الندوى فى مطبعة ندوة العلماء - لكهنؤ (الهند)

البعث الإسلامي

شهرية إسلامية جامعة

تصدرها ندوة العلماء، لكهنؤ (الهند)

★ العدد الثانى

★ المجلد الثامن والعشرون

★ شوال ١٤٠٢هـ

★ يوليو و سبتمبر ١٩٨٢م

شعارنا الوحيد
الإسلام من جديد

أخى القارىء

السلام عليكم و رحمة الله و بركاته

حرصاً على تأمين و سلامة وصول المجلة إليك نرجو :

١— كتابة العنوان بالانجليزية و العربيـة كليهما فى ورقة خاصة ، كل حرف على حدة ، و ارساله إلينا .

٢— ارسال إشتراك بالقيمة المبينة أدناه باسم «البعث الاسلامى» مقابل عام واحد أو أكثر :

٣— يرفق شيك الاشتراك ضمن مظروف مسجل إلى العنوان المذكور أدناه .

٤— الاشتراكات السنوية .

فى الهند : ٣٥ روبية ، ثمن النسخة ثلاث روبيات و نصف .

فى العالم العربى ٩ دولارات بالبريد السطحى ، ١٨ دولاراً بالبريد الجوى .

فى أوربا و أفريقيا و أمريكا : ٩ دولارات بالبريد السطحى ، ٣٠ دولاراً بالبريد الجوى ،

فى باكستان بنغلاديس و دول شرق آسيا : ٨ دولارات بالبريد السطحى ، ١٨ دولاراً بالبريد الجوى .

A L B A A S E L I S L A M I

N A D W A T U L U L A M A

Po. Box. No. 93 L U C K N O W (INDIA)

البعث الإسلامي

شهرية إسلامية جامعة

رئاسة التحرير

سعيد الأعظمى الندوى

واضح رشيد الندوى

أنشأها

فقيد الدعوة الاسلامية

الأستاذ محمد الحسنى

(رحمه الله تعالى)

فى عام ١٣٧٥هـ ١٩٥٥م

العدد الثانى

المجلد الثامن

و العشرون

شوال ١٤٠٣ هـ

يوليو و أغسطس

١٩٨٣م

أخى المسلم

أخى فى العقيدة و الدين لا فى التراب و الطين ، أخى على درب الايمان و الجهاد ، و طريق الشوك و القتاد ، أخى فى النضال و الكفاح و التضحية و الفداء ، أخى فى الحق و الصبر فى الوطن و المهجر ، أخى فى مهبط الوحى و منبع الصبح الصادق فى ليل الانسانية الغاسق ، أخى فى زهرة الصحراء و درة الخليج بين الرياح العاتية و الأمواج الثائرة ، أخى فى اليأس و الرجاء و الشدة و الرخاء ، أخى فى الله ! نقدم إليك هذه المجلة سلاحاً لك فى وجه الباطل ، زاداً لك فى طريق الايمان ، عوناً لك على نوائب الحق ، نصراً لك فى صراع النور و الظلام و معركة الجاهلية و الاسلام ، فليكن دورك فيها دور مرابط على الثغر ، حارس للأمانة ، أكثر من دور مشترك رسمى فى مجلة ، أوزبون فى محل تجارة !

[محمد الحسنى - رحمه الله]

المراسلات :

البعث الإسلامي

ندوة العلماء . ص . ب ٩٣

لكهنؤ — الهند

Albaas - el - Islami

NADWAT - UL - ULAMA

P. O. Box No. 93

LUCKNOW (I N D I A)

في هذا العدد

الافتتاحية :
شريعة الله لا تتطور مع المفاهيم المتطورة — سعيد الأعظمى — ٣

التوجيه الاسلامى

غاية التعليم و التربية فى العالم الاسلامى و مناهجه مشكلة كبرى و حل أكبر — سماحة الشيخ السيد أبى الحسن على الندوى — ١٠

نماذج التوحيد من البيان القرآنى — الأستاذ محمد الحسنى — ١٨

دراسة القرآن الكريم فى الصين — الأستاذ عبد الله محمد الحسنى — ٢٥

الدعوة الإسلامية

الأدب الاسلامى فى تراثنا التاريخى والجغرافى — الأستاذ عبد الرحمن ناجونغ — ٣٣

من بحوث الندوة العالمية للأدب الاسلامى

الأدب الاسلامى وصلته بالحياة — الأستاذ الدكتور فتحى عثمان — ٣٩

دراسات و أبحاث

مقدمة المصفى شرح الموطأ — فضيلة الأستاذ محمد الرابع الحسنى الندوى — ٥٠

آراء الامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى — الامام ولى الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى — ٦٤

القرآن كما يراه الغربيون — الأستاذ سلمان الحسينى الندوى — ٧٦

صور و أوضاع

نحو استراتيجية جديدة للعمل الاسلامى — الأستاذ صدر الحسن الندوى — ٨٤

الاتحاد بين الزعماء الأواحد ، كيف يتم ذلك — واضح رشيد الندوى — ٩٠

العالم الاسلامى

رحلة إلى « بتكل » أقصى جنوب الهند — » » » — ٩٣

سعيد الأعظمى — ٩٦

الافتتاحية :

شريعة الله لا تتطور مع المفاهيم المتطورة

لقد أثر الغزو الفكرى و الثقافى على أوساط المسلمين بوجه عام تأثيراً معاكساً ، له دلالات واضحة فى تصرفاتهم و تأويلاتهم للقضايا الحيوية التى تتصل بالعقائد الايمانية ، فكلما قام هذا الغزو بتصدير أفكار مضادة للحياة الاسلامية إلى المجتمعات الاسلامية سواء فى التشريع أو الحضارة أو فيما يتعلق بالقيم الثقافية والأخلاقية ، أسرعت العقول الفجة من أفراد المسلمين و أنصاف المثقفين إلى التمسك بها ، و وضعها موضع الاعتبار و التنفيذ ، دون مبالاة بما إذا كلف ذلك نوع تقديم أو تأخير أو نقص أو زيادة فى الأحكام الشرعية أو تأويل فى النصوص المحكمة ، مثل ما حدث فى التاريخ لدى إيجاد التوفيق بين القانون الرومانى والقانون الاسلامى ، فقد تحمس كثير من خبراء التشريع و التقنين من المسلمين لتطبيق القانون الرومانى على الحياة الاسلامية ، وتأكيد أن القانون الاسلامى لا يعارض القانون الرومانى ، وأن كليهما ينبعان من أصل واحد ، و يقومان على أساس واحد .

هذا الاتجاه الايجابى فى قضية مهمة كالغزو الفكرى و الثقافى و النظر إليها من خلال التسامح الدينى و الدماثة الخلقية ، مصدر ذلك الزيغ الذى داخل النفوس ، وساير الركب العلمى والحضارى فى تاريخ المسلمين ، وهو الذى كدر شفافية الفهم الصحيح للاسلام وعكر صفو العقيدة ، وذر عليه الغبار ، فنشأت أنواع من النماذج العقلية تناولت الشريعة الاسلامية بالشرح و التفسير من خلال رؤيتها الخاصة ، و فى ضوء مبلغها من العلم و الأصالة الفكرية ، و قد شهد التاريخ آثار تلك البلبلة الفكرية والنقائص العقلية وسجلها فى فترات متعددة ، ترجع إلى عهود الفرق و الطوائف الفكرية

التى ظهرت فى المساجلات الدينية و المناظرات العقائدية للخوارج و المعتزلة و الباطنية ، وخلفت تأثيراتها فى المجتمعات الاسلامية كلها ، مما كان لها الأثر العميق فى جميع الأجيال من العلماء و المفكرين الذين استندوا إليها فى شرح الدين وتفسير مفهومه بشئ كثير من الحرية و الانطلاق .

ثم بلغت الجراءة بغير العلماء و بمن لم يكونوا يتمتعون بحق الشرح و التفسير للفكر الاسلامى ، والشريعة الاسلامية إلى أنهم تدخلوا فى موضوع العقيدة والشريعة و تناولوا الأحكام و الأسس الدينية بالغلو و التضييق تارة و بالمرونة و اللبونة تارة أخرى . مما أدى إلى تطرف شائن و تطور فاحش ، وأضحت الشريعة جامدة محصورة بين التطرف من كل نوع ، وما عرفها المسلمون شريعة واضحة و دستوراً نيراً ، و قانوناً شاملا نزل من السماء لهداية البشر فى كل عصر و جيل ، و إنما صار للشريعة مفهوم ضيق فى نظرهم كسائر النظرات الدينية و الوضعية التى تختص بجانب أو بوقت خاص أو بحدث طارىء ، دون أن يؤمنوا بأن لها مفهوماً شاملا كاملا ، و دائماً مع دوام الانسان .

وجد مع كل عصر و جيل أناس بذلوا أقصى جهودهم لحصر هذا المفهوم الواسع العميق الشامل الكامل ، ذاك أن مصالح موقتة و محدودة ارتبطت بهؤلاء المغرضين ، وأوحى إليهم الشيطان أن الطريق المختصر ، والممهد للتوصل إلى مصالحهم هو الدين ، فاتخذوه مطية لما أرادوا من أهواء ومصالح مع التظاهر بأنهم لايهمهم إلا تجديد معالم الحياة الاسلامية التى أتى عليها الزمان ، وأنهم دعاة إلى تجديد دينى و انتفاضة إيمانية ، فى عصر ازدهار العقليات المادية والحضارات الزائفة التى تحاول إسدال الستار على وجه الاسلام النقى ، وإخفاء دور الشريعة فى رفع قيمة الانسان و حل المشكلات التى تعانى منها البشرية على المستويات المختلفة ،

ولكن الواقع كان يختلف دائماً عما زعمه هؤلاء الناس من بناء حصار قوى لشريعة الاسلام يحميها من كل غزو أو تحريف أو تبديل ، إنما كانوا يستهدفون دائماً من وراء هذه المحاولات إيجاد وضع يحدد مفهوم الحياة فى نظر الاسلام ،

و يحصرها فى إطار ضيق ، حيث تتطلب كل فترة من الازدهار العلمى و التقدم الحضارى تطوير ذلك المفهوم و التوفيق بينه و بين الواقع الذى يعيشه الانسان بادخال تغييرات فيه و إحداث أجزاء فى الهيكل الذى عرفه الانسان المسلم .

كل ذلك لتوفير الدليل على أن الشريعة التى جاء بها الاسلام ليست جامدة خشبية بل إنها متحركة متجددة ، تساير الزمان فى جميع أحداثه وتغييراته ، وثوراته و أفكاره ، وهى صالحة لقبول كل جديد يأتى به العلم الحديث وجديرة بالاستجابة لكل ما يفرضه التطور و الازدهار على الحياة و المجتمع ، و على هذا الأساس من القول استطاعوا التلاعب بالعقول ، ولم يقصروا فى أداء واجب التطوير والتحريف ، بكل ما أمكنهم من ممارسات ، و من هنالك أصبحت شريعة الاسلام مجالا خصباً وواسعاً لكل هدم باسم البناء ، وكل هجوم باسم الاصلاح ، وكل طمس باسم التجديد ، حتى ظهرت الشريعة غير الشريعة التى نزلت من السماء ، و وسعت كل جديد ، و كل تطور ، و تغير ، و برزفى ميدان العمل رجال نادوا بالتفكير و البحث فى الأحكام الشرعية من جديد ، و تطبيق المفاهيم الحديثة على المجتمعات الاسلامية ، و نبذ الخلافات المذهبية والنظرات الضيقة فى قبول التحديات التى يواجهها المسلمون من قبل الحضارات و الفلسفات الحديثة .

فكل ما وجد هناك من نظرات جديدة و ألوان حديثة للتفكير تطرقت إلى أوساط المسلمين الدينية و تزعمها رجال من ذوى الاهتمامات الاسلامية ، إنما كانت نتيجة تلك الجهود التى بذلت فى سبيل تطوير الشريعة وتطبيقها على الحاجات المتطورة ، و قد امتد تأثير ذلك إلى اجتهادات فى المسائل المتجددة من كل طبقة ، بل و قد تجرأ أناس عاديون للقيام بواجب الاجتهاد من غير أن يستوفوا شروط ذلك ، و يكونوا صالحين لهذا العمل العظيم .

إننا لا ننكر أن الشريعة الاسلامية متحركة متطورة ، حافلة بالنمو و النشاط و الحياة ، ولا ننكر الحاجة إلى الاجتهاد فى المشكلات التى تتجدد و تتطلب البت السريع ، فى ضوء الكتاب و السنة ، و اجتهادات فقهاء الأمة و الأئمة الأعلام

من المسلمين ، ذلك أن الاسلام بطبيعته القانونية لا يستطيع أن يضع حداً على الفقه و يغلق دونه أبواب الاجتهاد ، و لكنه لا يسمح بذلك لكل رجل عادى يدعى أنه فقيه و عالم و خبير ومفكر ، إنما يفوض الأمر إلى أولى النظر العميق و العلم الصحيح ، ممن أكرمهم الله بسلامة القلب و صفاء الباطن و إخلاص النية والاطلاع الواسع على الأحكام الشرعية وروحها الفقهية ، وعلى الأوضاع الحديثة ، و ما يزخر به هذا العالم من نظرات و فلسفات و أفكار و آراء و ما يجرى فيه من أحداث ، و محاولات ، و تحركات فى سبيل التغريب و التجديد .

و كلما ارتفع صوت من أى جهة مسئولة فى العالم حول إعادة عملية الغربلة الشاملة التى قام بها الاسلام فى صدر تاريخه فى المجتمع العربى الجاهلى ، و نادى رجال مسئولون بالتفكير من جديد فى القضايا الجديدة من وجهة نظر الفقه الاسلامى ، و وضع حلول للمشكلات الحيوية التى لم تنل عناية علماء الفقه و القانون ، كلما حدث ذلك تصدت الجهات العالمية المعارضة للاسلام و المناوئة للشريعة الاسلامية بالتأييد العظيم لانجاز هذا المشروع الفقهى البحت ، و قد أبدت بعض المعسكرات الكبرى العالمية ارتياحا كبيراً بما قد تعرض بعض الزعماء الكبار للاهتمام بالموضوع و أولوه عناية خاصة .

ورغم أن الموضوع يدور فى إطار فقهى خالص ولا يتعدى حدود الكتاب والسنة والتشريع الاسلامى ، وأن علماء الأمة الموثوق بهم فى علمهم وفقههم وإخلاصهم ، هم الذين يقومون بالحكم فى القضايا الخاصة التى تحتاج إلى وضعها على محك الفقه الاسلامى بالنقد و البحث ، رغماً من ذلك تتوقع المنظمات العالمية و المؤسسات السياسية التى لاعلاقة لها بالموضوع ، أنها تنجح فى كسر شوكة الاسلام و التشكيك فى خلود الشريعة الاسلامية وأحكامها بهذا الطريق ، إيماناً منها بأن ذلك هو الأساس الأول الذى يجب زعزعته ، لكى يتزعزع إيمان المسلم ، و يتسرب إلى نفسه سوء ظن بشريعته .

إلى هذا الحد من العداء المجنون يبلغ أعداء الاسلام فى الاكتياد لهدم بناء

الكيان الاسلامى الذى يرونه عائقاً كبيراً فى طريق الهدم والدمار و الفساد ، وفى البلوغ إلى مرامهم من استعباد الشعوب و التحكم فى رقابهم ، فيرون من واجب المسئوليات التى يتحملونها أن يضعف المسلمون بأى أسلوب ممكن ، وقد كان أسلوب التطوير أسهل طريق للتوصل إلى الهدف المشئوم ، فكيف لايحرصون أشد الحرص على بث هذه الفكرة فى المجتمعات الاسلامية و كيف لا يحشرون جميع وسائلهم وإمكانياتهم فى تأكيد وجوب تطوير الشريعة الاسلامية فى أذهان المسلمين حتى تساير الزمان ، وتزامل الظروف الحضارية و العلمية ، ولكى لايكون المسلمون متخلفين عن غيرهم فى مجالات الحياة والعمل ، و بالتالى لا يبقون عاجزين عن المعايشة فى هذا العالم المتقدم بازاء الأمم و الشعوب الأخرى ، كما يزعمون .

وبالمناسبة فاننا نرى من واجب الدين أن نصرح بالمغالطة الكبيرة التى ينطوى عليها منطق التطوير الذى يجاهره غير المسلمين ممن يهمهم إضعاف الثقة بالشريعة وأحكام الفقه ، وقد انخدع وينخدع بها كثير من المسلمين فاستجابوا لمنطق التطوير هذا ، وطالبوا - شأن الهدامين - بتطوير الفقه الاسلامى حتى يغطى المسائل المتجددة كلها ويقدم حلولا ناجعة للمشكلات الفقهية التى يمر بها المجتمع الاسلامى فى كثير من البلدان والأقطار ، وقد اتهم بعض المتحمسين للتطوير ، علماء وفقهاء المسلمين بالعجز و قصر الباع فى تحقيق المسائل الفقهية على ضوء الأحداث والأوضاع الراهنة .

إننا لم نقل ولا نقول أبداً أن الاجتهاد فى المسائل المتجددة ممنوع ، وأن من تتوفر فيه شروط الاجتهاد بالوجه المطلوب لايسمح له بذلك فيما إذا مست الحاجة إليه ، و لكننا نقول بصراحة : إن الشريعة الاسلامية وحدة كاملة شاملة حافلة بالقوة والنشاط ، وقد أنزلها الله تعالى لصالح الحياة الانسانية الفردية والجماعية ورعاية مصالحها فى كل زمان ومكان من غير أن يطرأ عليها أى نقص أو تغيير أو تحتاج إلى تحوير وتطوير ، فمهما تطورت الحياة وتبدلت المقاييس و تجددت الموازين و لكنها خلق الله الذى لاتبديل له « فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

من هنالك إذا نادت بعض الجهات المسئولة بفتح باب الاجتهاد و تطبيق القوانين الاسلامية على الحياة المتطورة فان ذلك لايعنى تطوير الشريعة و الأحكام الاسلامية ، بل إن معنى ذلك أن العالم المتطور لفى حاجة ملحة إلى تطبيق الشريعة الاسلامية على نفسه ، وإن التطوير والتغيير ليسا من شأن الشريعة و الأحكام التى هى خالدة دائمة باقية نامية ، وإن الحياة رغم تطوراتها تسترشد الشريعة فى كل لحظة وفى جميع الشئون الدينية والدنيوية وجميع المجالات العلمية والعملية .

من أجل ذلك يتفاقم خطر المحاولات التى بذلت وتبذل فى تطوير مفاهيم الدين الاسلامى ، وتجريد القيم الاسلامية و المعايير الايمانية من تصور الطاعة لله تبارك وتعالى ولرسوله ﷺ ، و لايزال الذين يتربصون بالاسلام والمسلمين الدوائر ويريدون أن يطفئوا نور الله ، مركزين جهودهم و جهادهم على فصل الدين الصحيح عن الحياة ، وإثبات أن الدين لفى حاجة إلى التجديد فى عصر قد تجددت فيه المفاهيم كلها ، و تطورت فيه الأفكار و المقاييس بكاملها .

فاذا فرح الأعداء بما إذا طرق أسماعهم صوت يرتفع من جهة مسئولة لها أهميتها حول البحث والاجتهاد فى مسائل الفقه الاسلامى المتجددة والمشكلات المستحدثة ، فذاك أدل دليل على ما نختفى وراء فرحهم من نوايا سيئة لهدم الحياة و المجتمعات الاسلامية ، ودك صروح العقيدة والايمان التى يأوى إليها المسلم من سموم المتاعب الانسانية ، و يستظل بظلالها من شمس الكفر و الطغيان .

شريعة الاسلام غنية عن كل تطوير و تجديد ، و إن الشئ الذى يتطور و يتجدد هو الزمان الذى يعيشه الانسان ، ولذلك فينبغى أن نأخذ العصر المتطور و الحياة المتطورة و نخضعهما للشريعة الاسلامية مأة فى المأة ، حتى تصح مسيرة الحياة و تتخذ من طريقها ما يؤديها إلى غاية الأمن و الايمان فى سهولة و يسر ، أما أن يأتى أى شخص و يلوى الشريعة حسب أغراضه و يوظف الاسلام لمصالحه الخاصة و الموقتة فان تسمح شريعة الله بذلك مهما كانت الظروف ، سنة الله و لن تجد لسنة الله تبديلا .

سعيد الأعظمى

التوجيه الإسلامي

- غاية التعليم و التربية فى العالم الاسلامى و مناهجه
- مشكلة كبرى وحل أكبر

غاية التعليم و التربية فى العالم الاسلامى و مناهجه

سماحة الشيخ السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى

(ألقيت هذه الخطبة فى جامعة كراتشى (باكستان) فى ١٣/ يوليو ١٩٧٨م، و قد استمع إليها أساتذة الجامعة و طلابها ، و المسئولون عنها بالاضافة إلى عدد وجيه من خبراء التعليم و الثقافة و الاجتماع و السياسة و الصحافة ، و القادة و الزعماء ، و المسئولين عن المراكز التعليمية و الثقافية و قدم المحاضر الدكتور إحسان رشيد نائب رئيس الجامعة ، و ألقى الكلمة الختامية صاحب السعادة إسماعيل سعد أمين جامعة كراتشى)

العلم حقيقة :

صاحب السعادة رئيس الجامعة ، و أصحاب السعادة و الفضيلة أساتذة الجامعة ، و طلابها و طالباتها ، و إخوتى الاعزاء !

على الرغم من أننى لا أؤمن بتقسيم فى العلم ، و إننى أعتقد أن العلم وحدة لا تتجزأ و لا تقبل التوزيع و التصنيف ، و لا يصح تقسيمه بين قديم و جديد و شرقى و غربى ، و عملى و نظرى ، إنى أرى - كما يرى الدكتور محمد إقبال - أن التوزيع بين القديم و الجديد لا يقول به إلا قاصرو النظر ، ضيقو الفكر ، بل إننى لا أؤمن بتقسيم العلم إلى دينى و دنيوى أيضاً ، إنى أرى أن العلم حقيقة أو تجربة لا يملكها بلد دون بلد أو أمة دون أمة ، ولا ينبغى أن يكون كذلك ، و لن يمكن ذلك ، كما أننى لا أؤمن بتحديد منابع أخرى فى الحياة تحديداً جغرافياً ، أو سياسياً أو عنصرياً ، أو قومياً .

على كل فانى أؤمن بأن العلم وحدة لا تتجزأ ، و ما يراه الناس كثرة أراه وحدة ، و وحدية العلم هى صدقه ، و واقعيته ، وكونه حقيقة ، و ولوعه بالحقيقة ، و نشدان الصدق و الواقعية .

على الرغم من ذلك كله أشكر صاحب السعادة رئيس الجامعة ، و المسئولين عنها إذ اختاروا للتحدث إلى هؤلاء الطلبة الأعزاء ، و إلى هذه الأزهار و البراعم الناعمة فى حديقة الاسلام ، رجلا ينمى - عن فهم ، و عن قصد أو خطأ - إلى منهاج التعليم القديم ، و من هنالك أرى لزاماً أن اعترف برحابة صدوركم وسعة أفقكم ، و انفتاح أنظاركم ، حيث أنكم ما أبحتم هذا الفرق بين القديم و الجديد الذى يراه قصار النظر من الناس .

إنى لا أؤمن ، لا فى العلم و لا فى الأدب ولا فى الشعر ، ولا فى الفلسفة و الحكمة ، بأنه من تزيأ بزيه الخاص فهو العالم ، أو الأديب أو الشاعر أو الفيلسوف و الحكيم ، و إن من تخلى عن هذا الزى فليس يستحق الخطاب و لا يستحق الاهتمام و الالتفات ، فضلا عن الاستماع إليه ، ومن سوء الحظ إن ذلك قد راج رواجاً كبيراً فيما يتصل بالأدب و الشعر فيتهم بقلة الأدب من يحضر ندوة علمية أو أدبية أو شعرية و لا يحمل « لافتة الأدب » و لا يتزيأ بزيه الخاص و أصبح الناس لا يغتفرون جريمة من لم يرتدوا زى الأدب الشعر ولم يتمكنوا من الحصول عليه من « دكانه » من الأدباء و الشعراء الموهوبين الذين جبلوا على فطرة الأدب و سليقة الشعر .

على كل فانى أرى أنها خطوة جريئة منكم أن دعوتمونى لالقاء الكلمة فى هذه الجامعة - على الرغم من أننى أؤمن بآفاقية العلم وشموله و حيويته و لا أراه ملكا لأحد ، أو لجهة ، أو لبلد ، أو لأمة ، فخزائن الله زاخرة ، و هى مفتوحة لكل

من كان مخلصاً فى الطلب ، صادقاً فى العزم - إنها بادرة تستحق التقليد ، و أود أن تدعو مدارسنا القديمة رجال المدارس الجديدة و المثقفين العصريين ، وأن توجه جامعاتنا و مدارسنا العصرية الدعوة إلى أولئك العلماء و الأفاضل الذين اخلصوا فى طلب العلم ، ولم يقصروا فى الاستفادة من التجارب الانسانية العظيمة ، والانتاجات البشريه العلمية و الأدبية .

الغاية الأولى و الأساسية من التعليم :

أيها السادة ! إن قلبى مفعم بعواطف الشكر ، حيث أتيح لى فرصة لالقاء كلمة أمام هذه المجموعة الطيبة التى تشتمل على كثير ممن قد يلعبون غداً دوراً خطيراً لا فيما يتعلق بهذا البلد وحده ، بل على مسرح العالم الاسلامى ، وقد يمسكون زمام إدارة البلاد ، أو يتاح لهم أن يوجهوا توجيهاً تربوياً تعليمياً على الأقل .

وفقنى الله أن اقرأ كثيراً و كثيراً فيما يتصل بالتعليم و التربيـــة و غايتهما المنشودة ، و الفائدة التى يجب أن تجنى منهما ، لكنى اكتفى بهـــذه المناسبة بتقديم شهادة واحدة، فيما يتعلق بتعريف العلم وتحديد غرضه لخبير تعليمى بريطانى معروف (Sir percy Neinn) من مقال له كتبه لدائرة المعارف البريطانية :

«لقد سلك الناس مسالك مختلفة فى التعريف بالتربية ، ولكن الفكرة الأساسية التى تسيطر عليها جميعاً : أن التربية هى الجهد الذى يقوم به آباء شعب و مربوه لانشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة ، التى يؤمنون بها ، إن وظيفـــة المدرسة أن تمنح للقوى الروحية فرصـــة التأثير فى التلميذ تلك القوى الروحية التى تتصل بنظرية الحياة ، و تربى التلميذ ، تربية تمكن من الاحتفـاظ بحياة الشعب ، و تمديدها إلى الامام (١) .

(١) دائرة المعارف البريطانية ، بند « التعليم » (Education) .

إن هذا التعريف بالتعليم و التربية هو أروع و أجمع و أكثر تواطئاً مع العمل والتطبيق من بين جميع المحاولات التى بذلت فى سبيل التعريف بالتعليم والثقافة .

ما هى غاية التربية ؟ و ماذا يراد من ورائها ، و لماذا تبذل المواهب الفنية على التعليم ، ولماذا تنفق قوى الأمة بسخاء وعلى طريقة منظمة ، ألكى يوجد التعليم فجوة بين الأمة و بين ما تعتز به و تتبناه من معتقـدات و أغراض ، و تراث حضارى و علمى ، و تصورات ، و سواء أكان كل ذلك مما ينبغى الاعتزاز به أم لا ، لكن الشئ الذى تحبه ، و المعتقـــدات التى تعتز بها ، و التصورات و القيم و المثل (Values) و العقائد (Conceptions) و الأفكار (Ideas) التى تتغنى بهـا و التراث الذى توارثته من آبائها و أسلافها ، من وظيفـة التعليم الأولى أن يربط بين الأمة و بين هذه الأشياء ، و ينقل هذا التراث إلى الأجيال القادمة و النشء الجـــديد ، ذلك التراث الذى أفرغ عليه سلفها خير قواهم و مواهبهم ، وبذلوا مدة طويلة من وقتهم ، وربما قاتلت تلك الأمة فى سبيله وحاربت وجاهدت ، و ضحت بعزها و شرفها ، و مجدها التليد ، ومن الفضول أن نتعرض بهذه المناسبة لما إذا كانت القيم التى حاربت الأمة من أجلها قيما صالحة أم لا ، لكن مسئولية التعليم أن ينقل هذا التراث إلى الأجيال المتلاحقة و لا يقتصر على النقل والتصدير فحسب ، بل يعمقه فى القلوب و الأذهان ، ويجعل القلوب و العقول تسيغه وتتذوقه ، و لا يعود نابياً لديها أو أجنبياً عندها ، بل يعود مألوفاً لها و محبوباً عندها ويصير طبيعـــة لهـا .

أمة محمد ﷺ أمة ممتازة فى خصائصها ومزاياها ، وصياغتها وعناصر تركيبها :

أرى أن هذا التعريف بالتربية بقلم خبير بريطانى تعريف جامع جداً ، لكن

إذا كان الأمر أمر أمة ، عقائدها و قيمها ليست من عند نفسها ، بل نابعة من الوحى الالهى ، و الكلام الالهى ، و النبوة و الرسالة ، و العلم اليقينى الغيبى الأزلى الذى لا يحول ولا يزول ولا يتغير قليلا أو كثيراً ، فهنالك تتضاعف المسئولية وتتضخم.

فاذا كان هناك تعليم يزعزع عقائد تلاميذه - من شعور أو من غير شعور ، عن قصد أو عن غير قصد ، عن خطأ أو عن خطة مدبرة - و يزعزع جذور قيمهم فى قلوبهم ، و يفكك عراها و يمزقها : و يثير فى قلوبهم شكوكاً و شبهات لا تزول ، وصراعاً نفسياً (Mental Conflict) و يتجاوز هذا الصراع الأفراد إلى الحياة الاجتماعية للامة . و يتحول الصراع إلى حرب دامية شعواء بين تلك القيم و المفاهيم و التصورات و المعتقدات ، و الأفكار و العقائد ، و بين ذلك الجيل المثقف بذلك التعليم وتلك الثقافة. فالأمر أدهى وأمر أيها السادة ! إنى لا أؤمن بالاسلام كتراث (Legaci) ولا أراى ذلك تعريفاً رائعاً بالاسلام ولذلك فانى لست معجباً بالكتب التى وضعت بعنوان (Legacy of Islam) و (Heritage of Islam) إنى أرى الاسلام رسالة للحياة . لا أراه قادراً على مسايرة الزمان فحسب ، بل أراه قائداً للزمان موجهاً له لا أراه رفيقاً للزمان فى رحلة الحياة بل أراه محاسباً للزمان ومراقباً له (Guardian) فاذا كان هناك مثقف بالتعليم العالى يقع فريسة الشك و الارتياب فى جميع قيمه و تصوراته و معتقداته ، أو يعود يراها دمى يسلى بها الصبيان و الأطفال ، أو أسطورة يتعلل بها السذج و الجهال ، أو يصبح لا يتحمس لها ، و لا يقاتل فى سبيلها ، و لا يدافع عنها . ولا يغامر من أجلها إذا مست الحاجة إلى ذلك . إذا كان ذلك فان هذا التعليم عدو لدود لمن يحمله يجب أن يفر منه فرار الانسان من الاسد بل أكثر من ذلك .

قضية البلاد الاسلامية أهم و أكبر خطراً :

أيها السادة ! و حين أتحدث إليكم فى هذا المحفل الكريم ، و فى رحاب هذه الجامعة الكريمة ، و على جزء من ربوع باكستان ، فانى أخاطب العالم الاسلامى

كله ، أخاطب تركيا ، أخاطب مصر و الشام و العراق ، وأخاطب المملكة العربية السعودية التى انعقد فيها منذ شهور مؤتمر عالمى للتعليم الاسلامى - (All world Islmic education Conference) - حضره من باكستان الأستاذ إحسان رشيد ، و صاحب السعادة و المعالى اسمه . كى. بروهى (A. K. Barohi) ، و حضرته أنا من الهند ، و قد صرحت عند ذاك - فى المحاضرة التى ألقيتها - أن الأمر يصبح ذا خطورة و حساسية و تعقيد إذا كان يتعلق ببلد إسلامى ، تعيش فيه أمة ذات شخصية (Personality) و ذات خصائص و مميزات ، ذات دعوة و رسالة ، ومكلفة بقيام دور فريد فى العالم البشرى ، تنبع معتقداتها وقيمها ومثلها ، و تصوراتها و أفكارها ، و وجهات نظرها من الوحى الالهى ، فاذا كان التعليم يحدث صراعاً فى مثل هذا الجيل ، و يجعله يخلع معتقداته و تصوراته العريقة بعد ما يتخرج فى جامعة عصرية ، و يصبح و كأنه أمة جديدة أو أمة أجنبية تبدو نابية قلقة فيما بين الشعب المسلم ، و يحصل من ذلك كله تعقيد جديد ، و تحدث مشكلة جديدة (Problem) ويحدث صراع مرير - و قد يكون صراعاً دموياً - بين هذا الجيل المثقف وبين عائلته الاسلامية و آبائه و أمهاته ، و بين المجتمع الذى هو عضو فيه ، و بين تاريخه و تراثه ، و قيمه و مآثر أسلافه ، و بين منصبه و مكانته التى حباها الله إياه ، و بين رسالة الاسلام و العمل الاسلامى ، و آمال الأمة الاسلامية ، و أحلامها ، إذا كان كل ذلك ، فانى لا أرى فى هذا التعليم خيراً ، ولا أراه خدمة للانسانية (Service) بل إنه سوء خدمة (Disservice) .

المسئولية الأولية لجامعة إسلامية فى بلد إسلامى:

و معذرة إليكم فانى لا أشير إلى جامعة بعينها ، ولا إلى المسؤلين عن جامعة محددة ، و إنما أتعرض لأمر مبدئى ، و أريد أن أقرر أن المسئولية الأولى والأهم و الأقدم لجامعة تقوم فى بلد إسلامى ، هى أن تؤكد إيمان الأمة بالعقائد والأفكار التى تؤمن بها ، والحضارة التى تحتضنها ، والدعوة والرسالة التى تتبناها ، والخصائص

و المزايا التى تحملها ، حتى لا يعود هذا الايمان إيمان رجل عادى (Layman) أو إيمان رجل الشارع (Man of Street) بل يكون إيمان عالم ، إيمان مثقف ، إيمان دارس ، ويطمئن عقله كما يطمئن قلبه ، ولا يعود كما يقول الدكتور محمد إقبال « قلبه مؤمن و عقله كافر » ، مشيراً إلى فيلسوف غربى . . . . و إذا كان الصراع لا يجوز بين الفرد و الجماعة ، فانه كذلك لا يجوز بين القلب و العقل فى حياة المرء الانفرادية ، فاذا كانت هناك جامعة تسبب هذا الصراع ، أو يسببه منهاجها التعليمى و منهجها العملى ، ونظامها الادارى ، و بيئتها العملية ، فذلك شؤم لاشؤم بعده للبلد الذى تقوم فيه الجامعة .

لا بد من اطمئنان القلب والعقل معاً :

أيها السادة طلبتم منى أن أتحدث حول موضوع منهاج الجامعات الاسلامية و غايتها . . إن الغاية الأساسية للجامعات الاسلامية ، أن توجد الايمان بتلك الأشياء التى أشرت إليها ، الايمان الذى يأتى عن طريق العلم و الثقافة و الدراسة ، و عن الشعور و التفكير ، و عن اقتناع العقل ، و عن الدراسة المقارنة ، و إذا كان هناك رجل إنما يؤمن قلبه و لا يطمئن عقله ، و هو يعلل عقله و يسليه ، و يحاول أن لا يستيقظ عقله ، كشأن الأمم غير المسلمة العديدة التى ترى بقاء دياناتها و رقيها فى عدم يقظة الشعور ، و تحاول أن يظل اتباعها سادرين فى سبات الغفلة ، مسدوداً عليهم منفذ النور و الهواء ، و من هنا وقع بين الكنيسة و العلم (Church & Science) ذلك الصراع الدموى الذى تقرؤن قصته المؤلمة المفجعة فى كتاب « الصراع بين الدين والعلم » ـ Conflict between religion & Science) للعالم الأمريكى المعروف « درابر » (John william Draper) و إنما وقع هذا الصراع لأن الكنيسة كانت ترى إن الخير كل الخير فى تبلد الشعور الانسانى بل كانت تعمل فعلا على تجميده و إماتته ، و كانت تؤمن بأن من الخير و السعادة

أن يكون الانسان محدود العلم قاصر المعرفة ، بل عديم العلم جاهلا ، و ما دام الحال على هذا المنوال ، كان الايمان بالكتاب المقدس راسخاً قوياً ، و كانت المسيحية عميقة الجذور ، بعيدة الغور فى المجتمع ، ذلك أن العهد العتيق كان يشتمل على كثير مما لا يؤيده العلم الحديث ، بل ينفيه ويفنده ، فكانت الكنيسة رأت من المصلحة أن لا يتيقظ شعور المسيحى ، ولا يتفتح وعيه ، و لا يتسع أفقه ، ولا يتقدم العلم ، فحاولت أن تقف فى وجه العلم لأنها ظنته عدواً لها لدوداً ، وخصماً محارباً حانقاً ، ولكنها اضطرت أخيراً إلى أن تضع السلاح أمام مد العلم وسيله الجارف ، و تياره العنيف ، لأنه حاجة الانسانية ، و مقتضاها الطبيعى ، و عاطفة الانسان الداخلية ، و نعمة الله الغالية ، و ضرورة العالم البشرى ، جعله الله لكى يخضر و ينمو ، و يورق و يثمر ، لا لكى يذوى و يذبل و يموت ، و هل تموت ، الحقائق ؟ على كل فان العلم كسب المعركة ، و ذاقت الكنيسة هزيمة و عاراً و شناراً منقطع النظير ، أمام العلم و تطلع الانسان إليه و طلبه الجامح له .

و تلك هى قصة مشئومة وقعت فى العالم المسيحى ، و لكنها تركت آثارها على دنيا البشر كلها ، و على جميع الديانات تقريباً ، و قد جعلت الناس يفهمون أنه لا يمكن أن يتقدم العلم و العقل معاً ، و أن يساير الدين العلم ، و لا بد هنا بصفتى دارساً للتاريخ ، أن أعترف - مع الأسف - أن هذا التصور الخاطئ قد نال بعض نصيبه من المفعول فى بعض الدول الاسلامية و لو لبعض الحين ، لكنه ما لبث أن لقى حتفه ، لانه يتنافى مع روح الاسلام و طبيعته ، و لم يدم هذا الصراع المصطنع فى العالم الاسلامى طويلا ، و ذلك لأنه لم يكن وليد خطأ فى داخل العالم الاسلامى ، وانما كان قد نشأ عن طريق أوربا المسيحية ، ولكنه غاب و انقشع كسحابة صيف ، أو بسرعة أكثر منها . « يتبع »

مشكلة كبرى و حل أكبر

« هذه الكلمة كتبها الأستاذ محمد الحسنى رحمه الله منذ عشر سنوات و هى تصور مشكلة الزيت تصويراً دقيقاً كأنها مشكلة اليوم ، و يسرنا أن نهديها لقراءنا الكريم »

[التحرير]

هناك مشكلة كبيرة فى العالم العربى ، و إنها مشكلة الزيت !

كان المتوقع أن يكون هذا الزيت سلاحاً فى أيدى العرب ، وأن يجعل هذا الزيت من الأمة العربية الضعيفة الفقيرة ، أمة مرهوبة الجانب ، موفورة العزة ، مرفوعة الهامة ، مسموعة الكلمة ، ولكنه بالعكس - مع الأسف الشديد - أضعف أمة العرب ، وكلما زادت البراميل كثرت العراقيل !

إن هذا الينبوع الفياض الثر من القوة المحركة للحياة ، الدافع بعجلة الصناعة إلى الامام ، صار اليوم سبباً كبيراً من أسباب الانهيار و الانحسار فى هذه المنطقة .

فكروا كيف صار الخير شراً و الحلو مراً و كيف انعكست الآية و انقلبت الحقائق رأساً على عقب .

هل إن الذنب فى ذلك يعود إلى ضغوط سياسية عالمية أو إلى صراع داخلى قيادى ، أو إلى ارتجالية وتهور ، أو إلى سياسة الاستسلام و الانهزام .

كلا ! إن أياً من هذه الأسباب لم تخلق هذه الأوضاع .

السبب الوحيد هو فقدان القناعة وفقدان الاستثمار ، القناعة فيما يتعلق بذواتنا و استثمار أموالنا فى مصالح الاسلام و المسلمين على نطاق أوسع و بتصميم أدق ،

لا تخافوا بأن القناعة أصبحت كلمة قديمة فنحن لا نستطيع أن نستغنى عنها رغم كل البلى و القدم كما لا نستطيع أن نستغنى عن ضوء الشمس ، بل إن حاجتنا إليها فى هذه الأيام أشد .

الحل ليس فى توفير الأموال و كسبها وجمعها وادخارها ، فانه كماء البحر المالح لا يزيد الشارب إلا ظمأ و عطشاً ، إنما الحل فى القناعة فيها !

أما نحن فقد غيرنا المحل ، أصبحنا قانعين باليسير فى أمر الدين ، طامعين فى الكثير من الدنيا ، قانعين بالدون فيما يهم الاسلام و المسلمين ، طامعين فى التوفير لأنفسنا و أولادنا و كمالياتنا و زيناتنا .

و أصبح ميدان الاستثمار هو البيوت وأصبح ميدان القناعة مصلحة المسلمين ، ولو كان الاستثمار قائماً على الحق و الصواب ، ما ضاعت مصلحة من مصالح الأمة و وجدت حظها من العناية و الاهتمام ، ولو كانت القناعة موجودة إلى أقصر الحدود لما كان هذا الانحلال و التفسخ و الفوضى .

إن مصيبتنا فى هذه الأوضاع لا تنكشف بكثرة القيل و القال أو بتوفير الأموال أو بالحياة الرتيبة المرسومة والمطامح المادية المعلومة إنما هى تنكشف بالطريقة الايمانية البناءة ، بالتطوير العام ، بتصحيح الأوضاع بحذافيرها ، و إصلاح ما فسد من غير رحمة و لا هوادة ، بالطريق الذى سار عليه الأولون ، وبالحياة التى عاشها المؤمنون الراشدون فى كل جيل ، فأكرمهم الله بالنصر و الغلبة و الأزدهار و ألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب .

ويحلولى أن أنقل هنا ما كتب شيخنا الندوى عن الهند فى عهد الانجليز ، وهو يتحدث عن جهاد السيد الامام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦هـ) فى كتابه الجديد « إذا هبت ريح الايمان » فهو ينطبق تمام الانطباق على الوضع الراهن فى

العالم الاسلامى المعاصر .

« بدأ المسلمون فى الهند على مر الأيام يتجردون عن صفات الفروسيـة ، وأخلاق الأمم الفاتحة التى امتازوا بهـا فى الماضى ، وفتحوا بها هذه البلاد الواسعة بجيش قليل و عدد ضئيل ، فيهم الرخاوة و الرقة ، و أخلدوا إلى الراحة والتنعم ، و ضعفت فيهم الحمية الاسلامية ، و الغيرة الدينية ، فكان الثعبان الانجليزى يبتلع بلاد المسلمين بلداً بعد بلد ، وقطعة بعد قطعة ، وهم منغمسون فى شهواتهم ، عاكفون على لذاتهم ، لا يحرك ذلك منهم ساكنا ، و لا يقض مضجعاً ، وتفاقم هذا الداء ، حتى بدأوا ينظرون إلى حياة الفروسية ، وخلال الفتوة و إلى السلاح وعدة الحرب بعين الاحتقار و الازدراء ، و يعتبرونهـا شعاراً للجهال و الأجلاف ، و رعاع الناس و يعتقدون أن ذلك لا يجتمع مع العلم ، و العبادة و الوقار .

و كان السيد قد ملكته فكرة الجهاد فى سبيل الله ، وتحرير بلاد المسلمين من المغتصبين وإعلاء كلمة الله ، وإعادة مجد الاسلام ، واستولت على مشاعره وأعصابه ، و أصبحت له الشغل الشاغل ، و الهم الوحيد ، فكان أكثر حديثه عنه ، و أكبر اهتمامه به ، و أعظم اعتنائه بما يعينه على ذلك .

وشغف بالتربية الحربية ، و الرياضات البدنية منذ ريعان الشباب ، كان أكثر لعبه و تسليته بالمعارك الحربية التى يقيمها مع أقرانه و أترابه من غلمان قريته ، وشباب عشيرته ، ودخل فى سنة ١٢٢٧هـ فى جيش القائد المسلم الشهير نواب مير خان مؤسس إمارة « تونك » الاسلامية ، وخاض معه فى حروب دامية ، ومعارك فاصلة ، و رافقه فى مغامراته ليتمرن على الحرب ، و على قيادة الجيوش ، وليحقق بها أمنيته اللذيذة العزيزة ، و هى إجلاء الغاصبين ، و إقامة حكومة إسلاميـة شرعيـة ، و لم يفارقـه إلا حين صالح القائد الانجليز ، و قبل أن يكون أميراً

فى منطقة صغيرة .

و قد أثرت هذه الرغبة ، و هذا الذوق الذى غلب على كل ذوق فى أصحابه و رفاقه ، وسرى فيهم ، فتحولت القرية الهادئة — التى لم تعرف فى الأيام الماضية إلا العبادة ، و الذكر و التسبيح — إلى ثكنة ، و مركز تربية حربية ، فلا ترى فيها إلا التمرن على الرمى و إطلاق النار ، و المسابقة فى أنواع الفروسية وما ينفع فى الحرب ، يساهم فيهـا العلماء و الأساتذة الكبار ، و أبناء البيوتات الشريفة ، و كبار الأغنياء ، و الجهال و الأميون ، و الشباب و الكهول ، وكبر ذلك على بعض العلماء و العباد الذين قصدوه من أنحاء بعيدة ، لينصرفوا إلى حيـاة الزهد و العبادة ، و الانزواء و التبتل ، و حنوا إلى العهد السابق حين كنت لا تسمع إلا دوياً كدوى النحل ، وأزيزاً كأزيز المرجل ، و كلموه ولكنه لم يجب طلبهم ، و أفهمهم أن ذلك أفضل ، و أن المسلمين إلى ذلك أحوج ، و ذكر لهم ما ورد فى فضل الرباط فى سبيل الله ، و عين تحرس (١) و قدم تغبر فى الجهاد (٢) ، فاقتنعوا و رافقوا إخوانهم فى الاستعداد للجهاد (٣) .

و لما زار السيد « لكناؤ » فى سنة ١٢٣٤هـ و عليه سلاحه ، قال له أحد الضباط الكبار ، و هو عبد الباقى خان ، يا سيدى ! إن كل أمرك حسن جميل ،

(١) روى الترمذى عن ابن عباس مرفوعاً : عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله ، و عين باتت تحرس فى سبيل الله .

(٢) روى البخارى و الترمذى و النسائى عن أبى عبس مرفوعاً : ما اغبرت قدما عبد فى سبيل الله فتمسه النار .

(٣) إقرأ ما دار من حديث بين الامام السيـد أحمد الشهيد ، و بين الشيخ محمد يوسف البهلتى من كبار علماء وعباد جماعته ، فى « سيرة سيد أحمد الشهيد »

إلا شيئاً واحداً تلازمه ، إن ذلك لم يفعله أحد من أجدادك الكرام ، وأنت من بيت دين وصلاح ، و مشيخة وعلماء ، و كان يجمل بك أن تقلدهم فى زيهم وشعارهم و أساليب حياتهم ، و لا تأتى بشئ جديد ، و لا تفعل ما لم يفعلوه .

قال السيد ما هو ذاك يا شيخ عبد الباقى خان ! ؟

قال الضابط ، هذا السلاح الذى تلازمه وتخرج فيه دائماً ، إنه شعار الجهال الأجلاف ، إنه لا يجمل بك ، و لا يليق .

و أحمر وجه السيد غضباً ، و رؤيت الكراهة فى وجهـــه ، و لكنه ملك نفسه و قال : سامحك الله أيها الضابط الكبير ، فما أصبت القول ، و ما هديت إلى الرشد ، و حسبك فى هذه الساعة ، أن هذه هى أسباب الخير التى أكرم الله بها أنبياءه ليقاتلوا بها الكفار و المشركين ، و كان لنبينا ﷺ منها النصيب الأكبر ، و القسط الأوفر ، و ظهر الاسلام على كل دين ، و انتصر الحق على الباطل ، والعدل على الظلم و أنت وآباؤك مدينون لهذا الجهاد أيضاً ، فمن يدرى فى أى دين كنت أنت و آباؤك ، لو لا قيام المسلمين فى القرون الأولى بالدعوة و الجهاد ، و ماذا كان مصيرك ؟ ! و سكت الضابط الكبير ، و أطرق رأسه حياءاً .

و كان كلما رأى شاباً قوى العضلات مفتول الذارعين تبدو على وجهه مخايل الفتوة و الشهامة ، فرح و استبشر ، و تلقاه بالترحيب . و أنزله منه منزلا خاصاً ، لأنه يرى فيه الغناء فى الجهاد .

زاره أربعة فتيان من قرية قريبة ، ذوو قامات فارعـــة ، و أبدان قوية ، فهش لهم و بسط لهم وجهه ، و رفع منزلتهم ، و قال : هؤلاء أحب إلى من أبناء المشايخ ، و الشباب المتنعمين ، فغناؤهم قليل فى ميدان الجهاد ، و معترك الحرب ،

أما هؤلاء فيستطيعون أن ينصروا الاسلام و يكتووا بنار الحرب .

و تعجب هؤلاء ، و كانوا فى الجيش يتقاضون رواتب زهيدة ، ولم يكونوا على شئ من العلم و الثقافـــة ، و لم يكونوا يتوقعون هذه الحفاوة ، و الاكرام البالغ ، فأحبوا السيد ولزموه ، و رافقوه فى الهجرة والجهاد ، فمنهم من أكرمه الله بالشهادة ، ومنهم من طالت به الحياة ، فعاش على الدين والصلاح ، والنصح للاسلام والمسلمين و السعى لاعلاء كلمة الدين » .

إن هذا الحل الذى قام به الامام و الذى شرحه المؤلف شرحاً وافياً جميلا فى كتابه الرائق الجديد هو الحل الوحيد لقضية المسلمين ، و هو مفتاح ذلك القفل الذى أعيافتحه الساســـة و القادة و الزعماء ، فخارت قواهم و انهارت أعصابهم ، و أصبحوا لا يملكون من السيطرة على نفوسهم و السيطرة على شعوبهم ما يؤهلهم للقيام بهذا الدور الكبير .

و بعد فان فى هذه القبسات من جهاد الامام ما يلقى الضوء على هذه المشكلة الكبرى و يقدم حلها الايجابى الصحيح ، و نحن بدورنا نزفها إلى شعوبنا المسلمة لتبصر فيها طريقها إلى النور و الحياة و الهداية و القيادة والله الموفق .

الدعوة الإسلامية

- نماذج التوحيد من البيان القرآنى
- دراسة القرآن الكريم فى الصين

نماذج التوحيد من البيان القرآنى

(٢)

الأستاذ عبد الله محمد الحسنى

الانسان محدود فى عقله و فعله :

إن الانسان لا يقدر أن يخرج من إطاره المحدود، و لا يستطيع أن يدرك كنه الأشياء إلا بالوسائل التى أنزلها الله عز وجل لأنه يخضع لعوامل نفسية داخلية و حوادث وقتية خارجية و لا يتجرد عن الثقافات الأجنبية و التأثيرات الخارجية و لا يخلو عما يهواه قلبه و تطمع إليه نفسه و لكنه - رغم هذه الأشياء التى تحول دون فهم صحيح و إدراك سليم - يغتر بنفسه و يختال فى مشيته فى إيجاد محدثات الأمور و نحت الأوثان و الأصنام ، فيتعدى الحدود الانسانية ، فتصيبه عثرات شديدة فى الطريق و يبرز عجزه و تقصيره فى هذا المجال ، فيبدأ يخضع أمام كل طاقة و قوة تعترض طريقه ، و أمام كل مخوف مهيب يعوق سيره ، و أمام كل نافع و ضار ، و أمام كل رغبة و هوى حسب التفاوت الموجود فى الطبقات الانسانية و حسب ما تقتضيه الظروف المدنية ، و الأوضاع البلدية ، و الأحوال الاجتماعية و الدوافع النفسية ، و حسب ما يتطلب الأسرة، والقرابة ، والأواصر و الوشائج فتنتشر شبكات الآلهة والمعبودات الباطلة فى أقاصى الأرض و أدانيها فيرسل الله المنذرين و المبشرين و ينزل معهم الكتب لاحقاق الحق و إبطال الباطل ورد الاشراك به و دحض الشبهات التى تعترى التوحيد الخالص أثناء غيبتهم و ابتعاد القوم عنهم و لاغواء الشيطان حسب ما قال أمام ربه « لآتينهم من بين

أيديهم و من خلفهم و عن أيمانهم و عن شمائلهم و لا تجد أكثرهم شاكرين (١) قال : « رب بما أغويتنى لا زينن لهم فى الأرض و لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين (٢) » .

القرآن كتاب التوحيد :

و إن القرآن أنزل على رسولنا الكريم محمد النبى العظيم ﷺ فطفق يفرق بين الحق و الباطل ، و جعل رسول الله ﷺ يدعو إلى التوحيد الخالص ، و نبذ الأصنام و الأوثان - و هى غاية بعثة الرسل العظمى كما أشرت من قبل - فأجل فى مواضع الاجمال وفصل فى موضع التفصيل و رد على المعتقدات الشركية المنتشرة فى أرجاء العالم بردود مقنعة تثلج منها الصدور و تطمئن إليها النفوس ، و ما قصر فيها ، و قد جاء فى القرآن « ما فرطنا فى الكتاب من شئ » لأنه كان خاتم الكتب المنزلة كما كان رسولنا الأعظم صلى الله عليه و آله وسلم خاتم النبيين .

و تناول موضوع التوحيد بتفصيل و إسهاب و قص علينا قصص الأمم السالفة التى تورطت فى الشرك و الأوثان فجاءها المرسلون و دعوها إلى التوحيد وشنعوا على معتقداتها الشركية تشنيعاً لاذعاً و ضربوا على وترها الحساس ، فنقدم بعض الأمثلة من القرآن الكريم ، وقد ذكر القرآن بلسان هود عليه السلام وأنه خاطب قومه عاداً و قال : « أتجادلونى فى أسماء سميتموها أنتم و آباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » (٣) فيقول قومه : « قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا(٤) »

(١) سورة الأعراف الآية ١٧ .
(٢) سورة الحجر الآية ٣٩ - ٤٠ .
(٣) سورة الأعراف الآية ١٧ .
(٤) سورة الأعراف الآية ٧٠ .

و تقول ثمود ، قوم صالح عليه السلام ، قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا » (١) فيقول صالح : « يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » وقد كتب العلامة السيد سليمان الندوى ، أنه حينما بدت فى الانسان آثار الحضارة والمدنية انصرفت أبصارهم تلقاء السماء والنجوم والكواكب ، فاستحقوها للعبادة و الألوهيـــة أكثر من معبودات الأرض ، فأكبوا عليها يعبدونها ، و قد نشأت هذه العاطفة فى الأمم السامية البدوية فى بداية الأمر ، ثم صور بعض منهم هذه الكواكب والنجوم فى صور و أشكال مختلفة ، حتى يمكن لهم أن يرووا غليلهم بهذه المعبودات التى نحتوها بأيديهم فى الأوقات كلها ، فصارت هذه الصور والأشكال لهم أصناماً و أوثاناً يخضعون أمامها فى عباداتهم ، و كان يحكم بابل و مصر الأمم السامية حين ولد سيدنا إبراهيم عليه السلام فرأى عبادة الكواكب و عكوفهم الزائد عليها ، فشق على نفسه الخضوع أمام المعبودات الفانية لأجل فطرته السليمـــة و نظرته العميقة .

نرى القرآن يحكى قصته بأسلوب جميل « و إذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك و قومك فى ضلال مبين ، و كذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات و الأرض و ليكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال : هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى : فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين(٢) » و قد يثبت من التوراة أنه سافر إلى مصر و كان الاستيلاء حينذاك لعاد فناظر

(١) سورة هود الآية ٦٢ .
(٣) سورة الانعام الآية ٧٦ - ٧٩ .

ملكا ادعى الألوهية لنفسه و ألحم الخصوم يقول إن ربى كذلك هو رب الشمس ، يقول القرآن « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ، إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى و يميت ، قال أنا أحى وأميت ، قال إبراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر (١) .

و نجد كذلك أن قوم سبا كانوا يعبدون الشمس ، و قد جاء فى القرآن فى قصة ملكة سبا بلسان هدهد « وجدتها وقومها يسجدون للشمس ، من دون الله (٢) فالقرآن يشير إلى الأمم السابقة و انحرافاتهم فى المعتقـــدات ثم يطلبها بوضوح و صراحة (٣) .

اليهودية : إن القرآن لم يتناول الأمة اليهودية بالرد و التقبيح و التشنيع فى معتقداتها إلا فى موضع واحد و هو « قالت اليهود عزير بن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا ، (٤) و لكنه وصفها بأوصاف قبيحة و أعمال رذيلة ، و صفات سخيفة فى مواضع شتى ، وبين الأمراض التى كانت الأمـــة اليهودية مصابة بها ، و كانت تنخر كيانها و تتآكل جذورها حتى أصبحت منحطة فى الأخلاق ، متلطخة بدماء الأقوام ، فاقـــدة جميع معانى الخير و الرشد و الصلاح حيث صارت لاخلاق لهـا فى الدنيا و الآخرة ،

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٨ .

(٢) سورة النمل الآية ٢٤ .

(٣) و قد قام بكتابة بحث دقيق فى هذا الموضوع العلامة السيد سليمان الندوى فى كتابه أرض القرآن ج ٢ ، أديان العرب قبل الاسلام ، القرآن وأديان العرب قبل الاسلام .

(٤) سورة التوبة ٣٠ .

و قد دمرت جميع المؤامرات الموجودة فى العالم و تولت كبرها ، سواء كانت فى أمريكا أو فى روسيا .

المسيحية : فقد رد القرآن عقائدهم الباطلة فى أربعة مواضع .

١— « يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ، ألقاها إلى مريم و روح منه فآمنوا بالله و رسله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهو خيرا لكم إنما الله إله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد (١) »

٢— « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم (٢) »

٣— « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد (٣) »

٤— « يعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله (٤) »

كلما نلقى نظرة عميقة على القرآن يبدو وضوح النهار أن موضوعـــه الأول و الآخر و ركيزته الأولى و اهتمامه البالغ للرد على الاشراك بالله وحده ، و هو قطب يدور حوله القرآن الكريم .

و هذا معلوم أنه رد على كل معتقد من معتقدات شركية ، تطرقت إلى أديان و مذاهب أخرى ، لا يجامل ولا يحابى فى هذه الناحية ، بل يفصل تفصيلا ويصرح تصريحاً فى هذا المجال ، و لو لم يكن المعتقد شائعاً فى الأمة كلها إلا فى نبذة قليلة من أمة كبيرة كما ترون فى الآيات التى وردت فى الرد على المسيحية و إن لم تكن المسيحية مجتمعة بأسرها على المعتقدات التى صرح بها القرآن الكريم بل كانت هذه المعتقدات منتشرة فى طوائف مختلفة من المسيحية .

(١) سورة المائدة الآية ٧٢ .

(٢) سورة المائدة الآية ٧٣ .

(٣) سورة المائدة الآيه ١١٦ .

(٤) سورة المائدة ١١٦ .

و كذلك ترونه يرد على جميع العقائد الشركية الباطلة فى العالم ، التى كانت موجودة فى زمنه ، ثم إنه بين أصولا ثابتة و قواعد متينة للرد على العقائد الباطلة التى ستنشأ فى ما بعد ، و أشار إلى دلائل و براهين لافحام الخصوم و دحض الأباطيل .

و قد جاء فى القرآن الكريم « قل لمن الأرض و من فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون ، قل من رب السماوات السبع و رب العرش العظيم ، سيقولون لله ، قل أفلا تتقون ، قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير و لا يجار عليه إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل فأنى تسحرون . بل آتيناهم بالحق و إنهم لكاذبون ، ما اتخذ الله من ولد ، و ما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون » (١) و قال « وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً (٢) إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة و إذا ذكر الذين من دونه إذاهم يستبشرون (٣) » وقال : « يعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله (٤) » قال : ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى ، إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان (٥) » « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى (٦) » وقال : « و قالوا اتخذ الرحمن ولداً ، سبحانه ، بل عباد مكرمون (٧) » « و إنه كان رجال من الانس

(١) المؤمنون الآية ٨٤ - ٩١ .
(٢) سورة الاسراء الآية ٤٦ .
(٣) سورة الزمر الآية ٤٥ .
(٤) سورة يونس الآية ١٨ .
(٥) سورة النجم الآية ٢٢ .
(٦) سورة النجم ٢٣ .
(٧) سورة الأنبياء الآية ٢٦ .

يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا (١) » « وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً (٢) ».

يرد القرآن على الالحاد و اللادينية فيقول : قالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت و نحيا و ما يهلكنا إلا الدهر (٣) » « ما هى إلا حياتنا الدنيا و ما نحن بمبعوثين » (٤) .

و يرد على ما شاع من أصنام و أوثان و أنصاب و نصب و تماثيل و هى أربعة ألفاظ استعملها القرآن للمعبودات المصنوعة من الطين و الحجر ، و الخشب كما صرح به العلامة السيد سليمان الندوى ، يقول القرآن : « أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون (٥) و الذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً و هم يخلقون ، أموات غير أحياء » (٦) « أ يشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ، و لا يستطيعون لهم نصراً و لا أنفسهم ينصرون ، و إن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم ، سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ، إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ، ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ، (٧) « إن الذين تدعون من دون الله ان يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له و إن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه (٨) » .

وقد حرم القرآن الذبح على النصب و الاستقسام بالأزلام فقال : « وما ذبح على النصب و أن تستقسموا بالأزلام » (٣) و الأنصاب و الأزلام رجس من عمل الشيطان .

(١) سورة الجن الآية ٦ .
(٢) سورة الصافات الآية ١٥٨ .
(٣) الجاثية الآية ٢٤ .
(٤) المؤمنون الآية ٣٧ .
(٥) الأنبياء ٢١ .
(٦) النحل الآية ٢٠ .
(٧) سورة الأعراف الآية ١٩١ .
(٨) سورة الحج الآية ٧٣ .
(٩) سورة المائدة الآية ٣ .

و ذكر القرآن أسماء بعض المعبودات المختصة بالقبائل و البطون المختلفة نذكر طرفاً منها .

« أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى » (١) « أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين » (٢) « ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً (٣).

و قد أعطى لنا القرآن فكرة واضحة حول التوحيد و مفاهيمه وهى موجودة و منبثة فى القرآن كله ، و قد ضرب على أوتار الشرك الحساسة و فضحه على قارعة الطريق بأمثلة سهلة رائعة ، و أسلوب شيق لذيذ ، و قصص ممتعة جميلة ، و حكايات سائغة واقعية ، حتى سهل على كل قارى للقرآن إدراكه و فهمه « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » و به يحصل على نقاء الفكرة التوحيدية ، و صفائها من أكدار الشرك و أدران البدعة ، و أدناس الضلالة ، و قد أمر كل فرد من أفراد البشر أن يوحد الله فى ذاته وصفاته و لا يلحد فى أسمائه « و ألزمهم كلمة التقوى (٤) لأن نجاة الانسانية معقودة بناصية التوحيد ، و أرسل رسله وأنزل كتبه لأجله ، وأعلن فى كتابه الأخير « الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (٥) أنه قد لا ينجو من يشرك بالله شيئاً ، فقال : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » (٦) « ليس كمثله شئ و هو السميع البصير (٧) . »

(١) سورة النجم الآية ٢٠ .
(٢) سورة الصافات الآية ١٢٥ .
(٣) سورة النوح الآية ٢٣ .
(٤) سورة الفتح الآية ٢٦ .
(٥) سورة فصلت الآية ٤٢ .
(٦) النساء الآية ٤٨ .
(٧) سورة الشورى ، الآية ١١ .

دراسة القرآن الكريم فى الصين

الأستاذ عبد الرحمن ناجونغ
عضو الجمعية الاسلامية الصينية (بكين)

إن دعوة القرآن إلى النظر و التفكير و التزيد من العلم و العرفان لا تزال قائمة و ستبقى إلى الأبد ، فقد قال تعالى : « و قل رب زدنى علما » طه (١١٤) و قال رسول الله ﷺ : « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » و قال عليه السلام : « أطلبوا العلم و لو بالصين » فان طلب العلم فريضة على كل مسلم .

كل هذا يدل على أن العلم من أصول القرآن الكريم ، و أن طلب العلم أهم مبادىء الاسلام .

كان للمسلمين فضل عظيم على الحضارة العالمية ، وقد أثبت المؤرخون الغربيون أنه لو لا العرب لضاع أكثر العلوم القديمة ، و لتأخرت نهضة أوربا الحديثة بسنين طويلة ، و كل هذا يرجع فضله إلى القرآن الكريم .

كان استيعاب المسلمين الصينين للفكر الاسلامى يجرى عن طريق التلقين الشفوى ، و فى كل مسجد طلاب يتعلمون من إمامه القرآن ، و بتطور التعليم الدينى داخل المساجد على كر العصور تكونت للمسلمين الصينيين مجموعة كاملة من النظام التعليمى ، و كان الطلاب يتلقون بصورة عامة علوم الصرف و النحو و البلاغة و الكلام و تفاسير القرآن (تفسير الجلالين ، و تفسير البيضاوى ، و تفسير الحسين ..) و الحديث الشريف و الفقه إلخ . . و قد جمع بعض الأئمة سوراً من القرآن تحت اسم (خاتمة القرآن) يضم السور التالية ، الفاتحة ، يس ، الملك ، الطارق ، الأعلى ، الضحى ، الانشراح ، القدر ، الزلزلة ، التكاثر ، العصر ، الفيل ، قريش ،

الماعون ، الكوثر ، الكافرون ، النصر ، المسد ، الاخلاص ، الفلق ، الناس .

وكان ذلك يتم مع انتشار الاسلام فى أنحاء البلاد حتى انتشرت خاتمة القرآن فيما بين المسلمين الصينيين ، ثم ظهرت مجموعة أخرى من (خاتمة القرآن) تضم بعض الآيات من سورتى البقرة و آل عمران ، و سور الفتح ، و يس و الملك ، والجزء الثلاثين من القرآن .

المخطوطات القرآنية :

كثرت الجوامع و المساجد مع تطور و انتشار الاسلام ، و احتاجت إلى كميات كبيرة من كتاب الله فأخذ الأئمة و العلماء ينتسخون القرآن و كتبا إسلامية أخرى ، و كذلك فعل المتعلمون ، يتنسخون و يتعلمون منها ، و كان بعضهم يقطع المسافات البعيدة حاملين زادهم و متاعهم للعثور على العلماء ينهلون على أيديهم من مناهل القرآن ، و تعاليم الدين ، و توجد مخطوطات قرآنية فى جامع دو نفس فى بيكين تمت كتابتها عام ١٣١٨م ، و كانت الجمعية الاسلامية الصينية قد طبعت خاتمة القرآن وفق أصل المخطوطة التى عمرها ٢٠٠ سنة . وجدير بالذكر أن سليمان دون شيو (١٨٢٨ - ١٨٧٣) زعيم انتفاضة قومية هو فى مقطعة يونان لقاومة ، حكم أسرة تشينغ الاقطاعى ، هو أول من قام بطبع القرآن الكريم فى الصين بطريقة النحت الخشبى فى سنة ١٨٦٢م و على إثر ذلك فقد قام الأستاذ العلامة نور الحق مليان يوان (١٨٤١ - ١٩٠٣) بطبع مختارات من القرآن الكريم مرفقة بالترجمات الصينية.

المختارات القرآنية المترجمة :

و قد اختار بعض الأئمة العلماء أجزاء من القرآن لترجمتها إلى اللغة الصينية فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر و أوائل القرن العشرين .

و كانت كراسات (خاتمة القرآن) رائجة فيما بين المسلمين كما ذكرنا فى

السابق ، ثم بدأ بعض الأئمة والعلماء يترجمون القرآن باللغة الصينية حسب الصوت فأخرجوا (خاتمة القرآن) الصوتية سهلة للمسلمين الذين عرفوا اللغة الصينية ، قليلا لا العربية ، حتى أصبح بمقدور بعضهم أن يتلو الآيات القرآنية دون حاجة إلى المعلمين فشاعت آنذاك (خاتمة القرآن) و (خاتمة الكتاب الحقيقى) الصينية ، وقد ظهر (كتاب الفرقان) باللغة الصينية هو أكمل طبعة مترجمة فى وقت مبكر ، صدر فى بيينغ (بيكن حالياً) عام ١٩٢٧م ، و أتم ترجمته لى تيه تشينغ (غير مسلم) الضابع فى اللغة اليابانية ، و أنجز ترجمة القرآن بالصينية وفقاً لطبعة القرآن اليابانية ، و كذلك راجعه على الترجمة الانجليزية ، فاعتبر كتاب الفرقان أكمل ترجمة للقرآن منذ دخول الاسلام فى الصين ، و لعب دوراً هاماً فى دفع بعض الأئمة و العلماء باللغة العربية إلى مزاولة ترجمة القرآن .

جيبى جيويه معى : نظم بعض العلماء و الأئمة فى ترجمة القرآن فى شغائى فى أوائل الثلاثينات فأتم صدور طبعة القرآن باللغة الصينية عام ١٩٣١م ، أنجز الامام الحاج سعيد إلياس الصين وانغ جيغ تشائى صدور القرآن المترجم والمفسر فى بيينغ (بكين حالياً) ثم انهمك فى عمليات ترجمة القرآن سنين طوالا حتى أتم صدور الطبعة المترجمة مرة ثانية عام ١٩٤٦م تحت نفس العنوان « القرآن المترجم و المفسر » فى شنيغ هاى اعتبرت طبعته الأخيرة أفضل من الطبعة الصادرة عام ١٩٣٢م ، سواء فى الترجمة أو التفاسير ، و أصبحت مرجعاً هاماً يرجع إليها المسلمون فى الصين قبل إخراج طبعة محمد مكين ، ثم أكمل يوجين ليا و طبع (القرآن المترجم) باللغة الصينية و بعض الشروح عام ١٩٤٢م فى بيينغ ، ظهرت طبعة معانى القرآن فى بيينغ عام ١٩٤٧م على يد إمام صالح تشونغ مينغ أخرجت طبعة (القرآن المفسر و المترجم باللغة الصينية) بادارة المسلم شى سى تشو فى مقاطعة تاى وان

و قد تعددت المسودات المترجمة و لم تخرج إلى حيز النشر لأسباب عديدة ، ظهرت طبعة القرآن المترجم باللغة الويغورية فى منطقة شينجانغ الويغورية الذاتية الحكم فأهتم الشيوخ والعلماء اليوغوريون بشرح وترجمة القرآن ، مثل الامام الأكبر شمس الدين (١٨٨٢-١٩٣٦) أنجز طبعة (تفاسير القرآن) الويغورية وهى عمل سهل الفهم عميق ، يقبل عليه المسلمون الويغوريون .

وقد صدرت فى بيكين الترجمة الصينية للقرآن الكريم ، التى أعدها المرحوم الأستاذ محمد مكين غفر الله له ، وهذا بشرى عظيمة للمسلمين كافة فى داخل الصين وخارجها ، و سيكون بمقدور كل مسلم صينى أن يحصل على نسخـــة من المصحف الكريم ، و كذلك كل راغب فى فهم دين الاسلام الحنيف ، والتعاليم الدينية والعلمية والتاريخية التى تضمنها القرآن واضحة جلية فى غير غموض ولا إبهام ، سافر الأستاذ محمد مكين مع البعثة الصينية الأولى إلى مصر لطلب العلم فى الأزهر عام ١٩٣١م و كنت أنا من أعضاء هذه البعثة أيضاً (١) ، ثم عمل على تأليف وترجمة الكتب الاسلامية بعد عودته إلى الوطن . و قد بذل أكثر من عشر سنوات فى ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الصينية . . وحتى عام ١٩٥٢م . . كان قد انتهى من ترجمة ثمانية أجزاء ، ثم و اصل ترجمة بقية الأجزاء إلى أن انتهى من هذا العمل الجبار قبل أن يوافيه الأجل . . وكان يعيد ويعيد فى الترجمة باذلا كل ما تدر عليه من براعةو دقة .

و ما زال القرآن كتاباً مقدساً لدى المسلمين الصينيين منذ دخوله للصين ،

(١) إن إيفاد البنين المسلمين إلى الجامع الأزهر و إلى خارج البلاد لاكمال دراستهم الدينية قد تم فى الفترة ما بين سنة ١٩٣١ وسنة ١٩٤٥ فقد لعبوا بعد عودتهم إلى الصين دوراً إيجابياً فى نشر الفكر الاسلامى و الحضارة الاسلامية و تنمية التبادل الثقافى بين الصين و الأقطار العربية .

نجده لدى كل عائلة ، زد على ذلك أن بعض الفتيات يحملن معهن القرآن إلى بيت الزوج ...../.. فى ليلة الزفاف ، واتخذ بعض المسلمين من آى القرآن لوحات جميلة يزينون بها جدران الغرف ، والمسلمون الصينيون يلتزمون بقوله تعالى « (لايمسه إلا المطهرون) » .

و بعد قيام جمهورية الصين الشعبية عام ١٩٤٩م ظلت الحكومة الشعبية تطبق سياسة حرية المعتقدات الدينية التى نص عليها فى (دستور جمهورية الصين الشعبية) و طبقاً لقرار المؤتمر الذى عقدته الجمعية الاسلامية الصينية افتتح المعهد الاسلامى الصينى فى بيكين عام ١٩٥٥م ، وقد أخذ المعهد على عاتقه إعداد أئمة أكفاء فى اللغتين العربية والصينية إلى حد ما . ومواده التعليمية هى القرآن الكريم ، والحديث الشريف واللغة العربية إلخ . و فى سنة ١٩٦٠م أنشئ قسم البحوث الاسلامية فى المعهد الاسلامى الصينى لدراسة علوم القرآن و الدين ، و قد نتج عن ذلك إعداد مجموعة من العلماء على مستوى عال نسبياً . غير أن المعهد قد واجه العقبات والعراقيل فى فترة العصـابات الأربع .

و من بواعث الغبطة و السرور أن انسدحصار تلك العصابة الشريرة منذ ١٩٨١م ، و فقاً لقرار المؤتمر الاسلامى الصينى الرابع ، قامت الجمعية الاسلاميـة الصينيـة باعادة افتتاح المعهد الاسلامى الصينى و طبع و نشر القرآن الكريم ، و إعادة إصدار مجلة « المسلم الصينى » من أجل تقديم الخدمات الدينيـة للمسلمين . إن الجمعية الاسلامية الصينية عادت كما كانت عليها سابقاً فى تقديم مساهمة كبيرة من أجل تعزيز الاتصالات الودية و الصداقه بين المسلمين عن طريقة المشاركة فى سبيل القضية الاسلامية .

من بحوث

الندوة العالمية للأدب الاسلامي

- الأدب الاسلامى فى تراثنا التاريخى و الجغرافى
- الأدب الاسلامى وصلته بالحياة

الأدب الاسلامى
فى تراثنا التاريخ و الجغرافى

الأستاذ الدكتور فتحى عثمان مدير البحوث (سابقاً)
بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
رئيس تحرير مجلة «العربية» (Arabia)

(الحلقة الخامسة)

و يسوقنا ذلك إلى النظرة الفلسفية للتاريخ عند المسلمين ، و هى مما تميز به تراثنا فكان سلفنا من الرواد فى مجال فلسفة التاريخ . ذلك أن القرآن قد وجه أنظار المسلمين إلى أن له سننا فى البشر مثل سننه فى الكون المادى «فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا . أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم و كانوا أشد منهم قوة ، و ما كان الله ليعجزه من شئ فى السموات ولا فى الأرض ، إنه كان عليماً قديراً . ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيراً » (فاطر / ٤٣ - ٤٥) ، «ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم و لكن ليبلو بعضكم ببض » (محمد / ٤) ، «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله قوى عزيز » (الحج / ٤٠) ، «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، و لكن الله ذو فضل على العالمين » (البقرة / ٢٥١) ، «أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع ، كذلك يضرب الله الحق و الباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء و أما ما ينفع الناس فيمكث

فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال » (الرعد / ١٧) ، « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون » (الأنبياء / ١٨) .

و قد أشار القرآن الكريم إلى بعض سنن الله الاجتماعية ، و من ذلك قوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (الرعد / ١١) ، « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (الأنفال / ٥٣) ، « ولو أن أهل القرى آمنوا و اتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء و الأرض ، و لكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » (الأعراف / ٩٩) ، « و إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » (الاسراء / ١٦) ، « واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه و كانوا مجرمين » (هود / ١١٦) ، « و كذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا أباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » (الزخرف / ٢٣) ، « إن الله لا يصلح عمل المفسدين » (يونس / ٨١) ، « و لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله » (فاطر / ٢٣) ، « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا و كنا نحن الوارثين . و ما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون » (القصص / ٥٨ - ٥٩) ، « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » (هود / ١١٧) ، « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » (الأنفال / ٢٥) ، « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، و العاقبة للمتقين » (الأعراف / ١٢٨) ، « ولوشاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، و لتسئلن عما كنتم تعملون » (النحل / ٩٣) « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ، ولو لا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما

فيه يختلفون » (يونس / ١٩) ، « ولوشاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ، و تمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة و الناس أجمعين » (هود / ١١٨ - ١١٩) ، « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ، و حبط ما صنعوا فيها و باطل ما كانوا يعملون » (هود / ١٥ - ١٦) « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء ولمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً . و من أراد الآخرة وسعى لها سعيها و هو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا . كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، و للآخرة أكبر درجات و أكبر تفضيلا » (الاسراء / ١٨ - ٢١) .

و استلفت نظر المؤرخين تتابع الدول وتطور الواحدة منها من الضعف إلى القوة ومن القوة إلى الضعف ، وحاولوا النفاذ إلى السنن التى تحكم ذلك وشاءها الله الذى خلق كل شئ بقدر وقدره تقديراً : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » (آل عمران / ١٤٠) ، « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء و تنزع الملك ممن تشاء و تعز من تشاء و تذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شئ قدير . تولج الليل فى النهار و تولج النهار فى الليل و تخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى و ترزق من تشاء بغير حساب » (آل عمران / ٢٦ - ٢٧) . و قد ربطت الآيتان الأخيرتان بين سنن الله الكونية المادية والاجتماعية البشرية فى تتابع الظواهر والوقائع .

و وجه ابن خلدون قصارى جهده لمحاولة سبر تلك السنن الاجتماعية التى تحكم تعاقب الدول و الحضارات . أنه يقول فى صدر مقدمته : « أما بعد ، فان فن

التاريخ من الفنون التى تتداولها الأمم و الأجيال . . . . إذ هو فى ظاهره لايزيد على أخبار عن الأيام و الدول ، و السوابق من القرون الأولى . . . . تؤدى إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال ، . . . . و عمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال . . . . و فى باطنه نظر وتحقيق ، و تعليل للكائنات ومباديها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع و أسبابها عميق » (١) .

ثم بعد أن يستعرض جهود من سبقه وعدم اهتمامهم بما اهتم هو به يقول : «... فأنشأت فى التاريخ كتاباً ، رفعت به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجاباً ، وفصلته فى الأخبار والاعتبار باباً باباً ، و أبديت فيه لأولية الدول والعمران علا وأسباباً ، . . . . . وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن وما يعرض فى الاجتماع الانسانى من العوارض الذاتيه ما يمتعك بملل الكوائن و أسبابها ، و يعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها ، حتى تنزع من التقليد يدك ، وتقف على أحوال ما قبلك من الأيام و الأجيال و ما بعدك » (٢) .

ثم يقول ابن خلدون فى ثنايا ما كتبه عن (فضم علم التاريخ و تحقيق مذاهبه) : « فهو (التاريخ) محتاج إلى مآخذ متعددة و معارف متنوعة وحسن نظر و تثبت . . . . لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل و لم تحكم أصول العادة و قواعد السياسة و طبيعة العمران و الأحوال فى الاجتماع الانسانى ، و لا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب ، فربما لم يؤمن فيها العثار ومزلة القدم و الحيد عن جادة الصدق » (٣) .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٦ .

(٣) المرجع السابق ص ١٢ .

ثم مضى ابن خلدون إلى تقديم أمثلة للمغالط فى بعض الروايات التى تناقلها المؤرخون ، ويفيض فى مناقشتها و إثبات سقوطها فى مضمونها وموضوعها و منها : « فاذن يحتاج صاحب هذا الفن إلى العلم بقواعد السياسة و طبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار فى السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب و سائر الأحوال ، و الاحاطة بالحاضر من ذلك ، و مماثلة ما بينه و بين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف ، و تعليل المتفق منها و المختلف . والقيام على أصول الدول و الملل و مبادىء ظهورها و أسباب حدوثها ودواعى كونها و أحوال القائمين بها وأخبارهم ، حتى يكون مستوعباً لكل حادث واقفاً على أصول كل خبر . و حينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول ، فان وافقها و جرى على مقتضاها كان صحيحا ، و إلا زيفه و استغنى عنه » (١) .

ثم يزيد ابن خلدون مقصده بياناً و وضوحاً فيقول : « إن التاريخ إنما هو ذكر الأخبار الخاصة بمصر أو جيل ، فأما ذكر الأحوال العامة للآفاق و الأجيال و الأعصار فهواس للمؤرخ تنبنى عليه أكثر مقاصده و تتبين به أخباره » (٢) . وهو يجمل أسباب تناقل الأخبار الواهية ، فى التشيع للآراء و المذاهب والغفلة عن اتباع قواعد التعديل و التجريح و الذهول عن المقاصد و الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع لأجل ما يداخلها من التلبيس و التصنع و تقرب النـاس فى الأكثر لأصحاب المراتب ، و لكن يقدم على هذه الأسباب كلها و يجعل سابقاً عليها سبباً أهم هو عنده الجهل بطبائع الأحوال فى العمران ، فان كل حادث من الحوادث ذاتاً كان أو فعلا لا بد له من طبيعة تخصه فى ذاته و فيما يعرض له من أحواله ، فاذا

(١) المرجع السابق ص ٤٥-٤٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٢ .

كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث و الأحوال فى الوجود و مقتضياتها أعانه ذلك فى تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب ، و هذا أبلغ فى التمحيص من كل وجه يعرض . . . . و القادح المحيل (للحكاية) من طريق الوجود أبين (من أى طريق آخر) . . . . . (و) معرفة طبائع العمران هو أحسن الوجوه و أوثقها فى تمحيص الأخبار و تمييز صدقها من كذبها ، و هو سابق على التمحيص بتعديل الرواة و لايرجع إلى تعديل الرواة حتى يعلم أن ذلك الخبر فى نفسه ممكن أو ممتنع . و إذا كان مستحيلا فلا فائدة فى النظر فى التعديل و التجريح .

و لقد عد أهل النظر من المطاعن فى الخبر استحالة مدلول اللفظ و تأويله بما لا يقبله العقل . و إنما كان التعديل و التجريح هو المعتبر فى صحة الأخبار الشرعية لأن معظمها تكاليف انشائية (أى من « الانشاء » الذى اصطلح البلاغيون على شموله الأمر و النهى و ما إليهما فى مقابل « الخبر ») أوجب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها ، وسبيل صحة الظن الثقة فى الرواة بالعدالة والضبط .

و أما الأخبار عن الواقعات فلا بد فى صدقها و صحتها من اعتبار المطابقة ، فلذلك وجب أن ينظر فى إمكان و قوعه ، و صار ذلك أهم من التعديل و مقدماً عليه . إذ فائدة الانشاء مقتبسة منه فقط ، و فائدة الخبر منه و من الخارج بالمطابقة . و إذا كان ذلك فالقانون فى تمييز الحق من الباطل فى الاخبار بالامكان و الاستحالة أن ننظر فى الاجتماع البشرى الذى هو العمران ، و نميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه ، و ما يكون عارضاً لا يعتد به ، و ما لا يمكن أن يعرض له . و إذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانونا فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار و الصدق من الكذب بوجه برهانى لا مدخل للشك فيه . . . . و كان ذلك لنا معياراً صحيحاً يتحرى به المؤرخون طريق الصدق و الصواب فيما ينقلونه . و هذا

هو غرض هذا الكتاب الأول من تأليفنا . ويقرر ابن خلدون أن هذا العلم الذى نبه إلى أهميته بالنسبة للتاريخ « كأنه علم مستقل بنفسه ، فانه ذو موضوع و هو العمران البشرى و الاجتماع الانسانى ، و ذو مسائل و هى بيان ما يلحقه من العوارض و الأحوال لذاته واحدة بعد أخرى . و هذا شأن كل علم من العلوم و ضعياً كان أو عقلياً . و اعلم أن الكلام فى هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة غزير الفائدة . . . . و كأنه علم مستنبط النشأة » (١) .

ونشير إلى بعض ما ذكره ابن خلدون من سنن العمران والاجتماع الانسانى الذى ينبغى أعمالها فى تمحيص الأخبار ، و على رأس هذه السنن التى يؤدى الذهول عنها إلى مغالط الرواة و المؤرخين عنده « تبدل الأحوال فى الأمم و الأجيال بتبدل الأعصار و مرور الأيام . و هوداء دوى شديد الخفاء ، إذ لا يقع (التبدل) إلا بعد أحقاب متطاولة و لا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة . و ذلك أن أحوال العالم و الأمم و عوائدهم و نحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة و منهاج مستقر ، إنما هو اختلاف على الأيام و الأزمنة و انتقال من حال إلى حال ، وكما يكون ذلك فى الأشخاص و الأوقات و الأمصار فكذلك يقع فى الآفاق و الأزمنة و الدول (سنة الله التى قد خلت فى عباده) » .

ويبرر ابن خلدون أثر تغير الحكام على تغير عوائد المحكومين فى هذا الأمر و لا سيما إذا كان الحاكمون الجدد من أصل و بيئة و عادات و ثقافة مخالفة : « و السبب الشائع فى تبدل الأحوال و العوائد أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه . . . و أهل الملك والسلطان إذا استولوا على الدولة والأمر فلا بد من أن يفزعوا إلى عوائد من قبلهم ، و لا يغفلوا عوائد جيلهم مع ذلك . . . فاذا جاءت

(١) المرجع السابق ص ٥٨ - ٦٣ .

دولة أخرى من بعدهم و مزجت من عوائدهم و عوائدها خالفت أيضاً بعض الشئ . . .

ثم لا يزال التدريج فى المخالفة حتى ينتهى إلى المباينة بالجملة . فادامت الأمم و الأجيال تتعاقب فى الملك والسلطان ، لاتزال المخالفة فى العوائد والأحوال واقعة. و القياس و المحاكاة للانسان طبيعة معروفة ، .. .. فربما يسمع السامع كثيراً من أخبار الماضين ولا يتفطن لما وقع من تغير الأحوال وانقلابها ، فيجريها لأول وهلة على ما عرف ويقيسها بما شهد وقد يكون الفرق بينهما كثيراً فيقع فى مهواة من الغلط » (١) ، «وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله ، وتحول العالم بأسره و كأنه خلق جديد و نشأة مستأنفة و عالم محدث » (٢) ،

على أن التغير الذى أفاض ابن خلدون فى التنبيه إليه ، لا يعنى عنده افتقاد سنن ثابتة مطردة فى الاجتماع الانسانى ، بل هو لا يفتأ إن يبرر أن ثمة ثوابت مطردة يسميها « أصول العادة و قواعد السياسة و طبيعة العمران و الأحوال فى الاجتماع الانسانى » ، وهكذا يمكن بل ينبغى أن يقاس « الغائب بالشاهد والحاضر بالذاهب » (٣) كما ذكر صاحب المقدمة .

و يمضى ابن خلدون فى سبيله ، يحاول التوصل إلى سنن العمران البشرى ، البدوى منه و الحضرى ، و سنن قيام الدول و سقوطها ، و تطور الصنائع والحياة الاقتصادية ثم تطور العلوم و التأليف فيها و تعليمها . و يضع على رأس قواعد العمران و الاجتماع الانسانى أن « الاجتماع الانسانى ضرورى » و أن « هذا

(١) المرجع السابق ص ٤٦ - ٤٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٥٣ .
(٣) المرجع السابق ص ١٢ .

الاجتماع إذا حصل للبشر وتم عمران العالم بهم فلابد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما فى طباعهم الحيوانية من العدوان و الظلم » (١) . و ابن خلدون يرى أن معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للبأس فيهم مذهبة للمنعة منهم ولكنه يستدرك فيقول : « و لا تستنكر ذلك بما وقع للصحابة من أخذهم بأحكام الدين و الشريعة و لم ينقص ذلك من بأسهم بل كانوا أشد الناس بأساً ، لأن الشارع صلوات الله عليه لما أخذ المسلمون عنه دينهم كان وازعهم فيه من أنفسهم لما تلا عليهم من الترغيب و الترهيب ، و لم يكن بتعليم صناعى و لا تأديب تعليمى .. ..

و لما تناقص الدين فى الناس ، أخذوا بالأحكام الوازعة ، ثم صار الشرع علماً و صناعة يؤخذ بالتعليم و التأديب و رجع الناس إلى الحضارة و خلق الانقياد إلى الأحكام فنقصت بذلك سورة البأس فيهم . فقد تبين أن الأحكام السلطانية و التعليمية مفسدة للبأس لأن الوازع فيها أجنبى ، و أما الشرعية فغير مفسدة لأن الوازع فيها ذاتى .. . و لهذا قال محمد بن أبى زيد فى كتابه (أحكام المعلمين و المتعلمين) : « إنه لا ينبغى أن يضرب أحد من الصبيان فى التعليم فوق ثلاثة أسواط - نقله عن شريح القاضى » (٢) .

و قد أفاض ابن خلدون القول فى (العصبية) و هى عنده ما نعبر عنه فى أيامنا بالثقل الاجتماعى السياسى . و قرر أن الغلبة للعصبية و أن غايتها هى الملك ، ومن طبيعته السعى إلى الانفراد بالسلطة و المجد ، كما أن من طبيعته الترف و الدعة و السكون ، فاذا استحكم ذلك أقبلت الدولة على الهرم ، ذلك أن للدولة أعمار كأعمار الأفراد وقد فصل ابن خلدون الحديث عن أنواع الملك و أطوار الدولة

(١) المرجع السابق ص ٦٩ - ٧١ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٢١ - ٢٢٣ .

وانتقالها من البداوة إلى الحضارة. وقد ارتأى أن الملك الطبيعى هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة، و أن الملك السياسى هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية و دفع المضار و هو يستخدم سياسة عقلية قوانينها مفروضة من العقلاء و أكابر الدولة و نصبائها و يسلم الكافة لها وينقادون لأحكامها .

أما الخلافة و هى حكم المسلمين بشريعة الله فهى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية و الدنيوية الراجعة إليها ، و هى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين و سياسة الدنيا به . فجاءت أحكام الشريعة الالهية « تحملهم على ذلك فى جميع أحوالهم من عبادة و معاملة حتى فى الملك الذى هو طبيعى للاجتماع الانسانى ، فاجرته على منهاج الدين ليكون الكل محوطاً بنظر الشارع » (١) .

ولما كان الله قد خلق السموات والأرض و ما بينهما بالحق ، و أنزل الكتاب الذى يحمل شريعته إلى الناس بالحق ، فان الحق الذى جاء به الشرع لا يتناقض مع سنن الله الكونية و الاجتماعية ، و هذا ما ينبه إليه ابن خلدون أكثر من مرة فى خلال كتابه ، يقول مثلا : « .. .. فاشترطنا فى القائم بأمور المسلمين أن يكون من أولى عصبية قوية غالبة على من معها لعصرها ، ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية .. .. و إذا نظرت سر الله فى الخلاقة لم تعد هذا ، لأنه سبحانه إنما جعل الخليفة نائباً عنه فى القيام بأمور عباده ليحملهم على مصالحهم و يردهم عن مضارهم ، و هو مخاطب بذلك و لا يخاطب بالأمر إلا من له قدرة عليه . . . ثم إن الوجود شاهد بذلك ، فانه لا يقوم بأمر أمة أو جيل إلا من غلب عليهم ، وقل أن يكون الأمر الشرعى مخالفاً للأمر الوجودى والله أعلم » (٢) ،

(١) المرجع السابق ص ٣٣٧ - ٣٣٨ . (٢) المرجع السابق ص ٣٤٧ .

و يقول أيضاً : « اعلم أن الملك غاية طبيعية للعصبية ، ليس و قوعه عنها باختيار ، إنما هو بضرورة الوجود و ترتيبه .. . و أن الشرائع و الديانات و كل أمر يحمل عليه الجمهور فلا بد فيه من العصبية » (١) .

لقد وجه القرآن المؤمنين إلى النظر فى سنن الوجود ، و استفاد علماء المسلمين فى مختلف مجالات علومهم من هذا التوجيه ، و كان منهم الذين خاضوا فى مجال (طبائع العمران و الاجتماع الانسانى و قواعد السياسة) وفى مقدمتهم ابن خلدون الذى كثيراً ما يضمن مباحثه شواهد من آيات القرآن تؤيد وجهته أو خواتم نشوق العبرة و يكون فيها فصل الخطاب . و قد استفاد من هذا الاتجاه الرائد بدرجة ما المقريزى و ابن تغرى بردى من مؤرخى مصر . و أفرد السخاوى (المتوفى ٩٠٢هـ) سفراً للتعريف بالتاريخ و مقاصده و خصائصه و مزاياه و مناهجه هو كتاب (الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) .

و أخيراً : فان من الخصائص الاسلامية البارزة لتراثنا فى التاريخ والتراجم ، ذلك أن الأداء الأدبى الندى لوقائع التاريخ ، إذ تأثر المؤرخون المسلمون بالنهج القرآنى فى سوق الوقائع و السير ، و لكتاب الله المثل الأعلى الذى تقصر عن بلوغ كماله جهود البشر ، و إنما تحاول أن تقتدى و تهتدى و تتابع .. .. و فيما سلف من مقتطفات من أدب التاريخ و التراجم شاهد على ذلك ، حتى ما نقل ابن خلدون فى مقدمته الفذة الرائدة التى عالج فيها مباحث دقيقة عميقة و خلص فيها لآراء و نتائج لم تكن معروفة و لكن لم تخل عنه قدرته البيانية و أسلوبه الأدبى و هو يغوص فى نظراته و نظرياته .

« يتبع »

(١) المرجع السابق ص ٣٥٨ .

الأدب الاسلامى وصلته بالحياة

[الحلقة الرابعة الأخيرة]

فضيلة الأستاذ محمد الرابع الحسنى الندوى
عميد كلية اللغة العربية جامعة ندوة العلماء

شعر جاهلى رضى به الرسول عليه السلام :

و من الشعر الذى سمعه الرسول ﷺ و رضى به مع إنه قرض بلسان غير إسلامى و بالسبك القديم شعر قتيلة بنت الحارث فى أخيها النضر بن الحارث الذى كان الرسول ﷺ قد أهدر دمه فقتل و لكن رسول الله ﷺ سمع قصيدة أخته فى الاستعتاب فقال لوسمعتها قبل قتله لعفوت عنه ، و هو أمر يدل على تفاعل نفسه ﷺ مع معانى هذه القصيدة وقبول نفسه الكريمة لمسات هذا الشعر العاطفية الانسانية ومع أن هذا الشعر لا يعد شعراً إسلامياً (بالاصطلاح المقرر) ولكنه يحمل روحاً مشابهة للروح الاسلامية و الطبيعة الاسلامية فهوشبه إسلامى .

تقول :

يا راكبا إن الأثيل مظنة ... من صبح خامسة و انت موفق
أبلغ بها ميتا بأن تحية ... ما إن تزال بها النجائب تخفق
منى إليك و عبرة مسفوحة ... جادت بواكفها و أخرى تخنق
هل يسمعنى النضر إن ناديته ... أم كيف ، ميت لا ينطق
أمحمد يا خير ضنء كريمة ... فى قومها و الفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت و ربما ... من الفتى و هو المغيظ المحنق ،
أو كنت قابل فدية فلينفقن ... باعز ما يغلوبه ما ينفق

فالنضر أقرب من أسرت قرابة ... و احقهم إن كان عتق يعتق
ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشقق ،
صبراً يقاد إلى المنية متعبا ... رسف المقيد وهو عان موثق ،

ذكره ابن هشام فى كتابه وقال إن رسول الله ﷺ لما بلغه هذا الشعر قال : لو بلغنى هـذا قبل قتله لمننت عليه .

كذلك قصيدة بانت سعاد التى قرضها صاحبها بالسبك القديم و لكن فى استعطاف رسول الاسلام ﷺ و بروح الوفاء للاسلام و الخضوع له و الحب لما يتلائم معه فسمعها الرسول ﷺ واجاز عليها كما كان يجاز على الشعر العربى الجيد فى ذلك العهد ، فدخلت القصيدة فى نطاق الشعر الاسلامى و أصبحت خالدة لنيلها رضا رسول الله ﷺ و اجازته عليها .

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا ... إلا أغن غضيض الطرف مكحول

إلى أن يقول :

أنبئت أن رسول الله أوعدنى ... و العفو عند رسول الله مامول
فهلا هداك الذى أعطاك نافلة ... القرآن فيها مواعيظ و تنويل

كذلك قصيدة النابغة الجعدى الذى دخل فى الاسلام وانشد قصيدته أمام الرسول ﷺ ولم يعترض عليها سوى بيت منها ولكنه رضى به بعد الايضاح الذى قدمه صاحبه له و بذلك صارت القصيدة مرضية لدى رسول الاسلام فهى داخلة إذن فى نطاق الشعر الاسلامى .

إجادة الشعراء المخضرمين بعد إسلامهم :

لقد أثار الناس جدلا طويلا حول جودة الشعر فى ظل الاسلام بالمقارنة مع

مع الشعر الجاهلى ، وأرادوا بذلك كلام المخضرمين من الشعراء ، فقالوا إن شعر حسان بن ثابت الأنصارى قد ضعف بعد الاسلام ، و لم يحمل من الروعة الأدبية ما حمله فى الجاهلية وقالوا ذلك عن الشعراء المخضرمين الآخرين الذين قرضوا الشعر فى الجاهلية ثم زهـدوا فى قرضه فى الاسلام ، فقد وصفهم هؤلاء بضعف الملكة الشعرية تحت ظل الاسلام .

هذا رأيهم و لكنه رأى لا يستوى عند مقارنة أمينة محايدة لأن ، الشعراء الذين لم يقولوا شعراً أو زهدوا فى قوله بعد ما أسلموا ما زهدوا فيه لعجزهم عن قول الشعر بل كان امتناعهم عن ذلك لسبب يتصل بهدفهم و غايتهم ، و ليس لشلل فى قرائحهم ، و يدل على ذلك أن رسول الله ﷺ ، لما رأى منهم امتناعهم عن الشعر قال ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله ﷺ بسلاحهم أن ينصروه بلسانهم ، فقال حسان بن ثابت الأنصارى أنا لها يا رسول الله وأخذ بطرف لسانه و قال و الله ما يسرنى به مقول بين بصرى وصنعاء .

فقال رسول الله ﷺ كيف تهجوهم (يعنى قريشا) وأنا منهم وذلك لأن الهجاء كان أشد سلاح من الأسلحة الشعرية عند عرب ذلك العصر ، وكان شعراء قريش يستخدمونه لايقاع بدعوة الرسول ﷺ ومكانته ولم كن ليرد عليهم إلا بالسلاح نفسه فقال حسان : إنى أسلك كما تسل الشعرة من العجين ، و حقا برز حسان أمام المعارضين بقوة دحضت حجاجهم الشعرى و ابكتهم ، و من أمثلة ذلك أن وفداً أتى إلى رسول الله ﷺ كان يمثلهم شاعرهم زبرقان بن بدر فاستدعى رسول الله ﷺ حسانا رضى الله عنه فنقض قصيدة زبرقان بشعره القوى الذى ابتدأه بقوله .

إن الذوائب من فهر و أخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع

و هى قصيدة مؤثرة رائعة سبق ذكرها قبل صفحات

فلم يكن سبب زهـادة المسلمين فى قول الشعر بعد دخولهم فى الاسلام إلا انحيازهم للصدق والجد و واقعية الحق ، وهو الذى تجلى فى شعر الشعراء المسلمين الأولين الذين قالوا الشعر فى العهد الجديد و قد سبقت بعض امثلتها فى الصفحات الماضية .

أما حسان بن ثابت الأنصارى و هو أعظم شعراء العهد النبوى الكريم و قد اعتمد عليه الرسول ﷺ فى قول الشعر ، « فقد كان فى جاهليته يضرب على الوتر التقليدى فى المدح والهجاء ولكنه لما لامس الايمان قلبه وغسل عنه ادران الجاهلية و أوضار الشرك تغير فاصبح لايهجو أحداً إلا بالحق و لا يمدح إلا بالحق ، و يقول الشعر الرصين فقد اثبت براعته و روعته الشعرية بجدارة و قوة فى عهده الجديد .

ولم يعد يهيم فى كل واد شان غيره من الشعراء الجاهلين بل أخذ يكرس جهوده لتحقيق عالم تسوده المودة و الاطمئنان وسعى لتحقيق نظام أنزله الله تعالى للبشرية و ارسل به رسولا يهدى الناس سواء السبيل .

وقد مضى حسان يحدد لنا شعره ويضع ميزانا جديداً للنقد و التعريف حيث قال عن الشعر و كيف ينبغى أن يكون .

و إنما الشعر لب المرء يعرضه على المجالس كيساً و إن حمقا
و إن أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا

و بذلك نقض المبدأ الجاهلى للشعر و هو «أبلغ الشعر أكذبه» و نادى بالمبدأ الجديد تحت شعار التربية النبوية الكريمة و التعليمات الهادفة » (١) .

فان كان ترك الكذب و الجوانب المنحرفة و الاباحية فى الشعر نقصا فى الملكة الشعرية فنعترف بأن الشعر الاسلامى فى هذه الناحية ناقص ، و يستحسن

(١) شاعر الاسلام للأستاذ وليد الأعظمى .

الاسلام هذا النقص ، لأن طبيعة الاسلام هى الكرامة و السناء و هى تأبى معالجة الجوانب العفنة فى الكلام ، ثم إن طبيعة حب لجوانب و زهد فى جوانب أخرى فى الشعر ليست أمراً غريباً فى التراث الشعرى ، فقد وجدت وتوجد لهذه الطبيعة نماذج كثيره فى الشعر و الأدب ، فى كل فترة من فترات التاريخ باختلاف الأوضاع و الأحوال ، و اختلاف الظروف و الادوار .

التزام الشاعر لجوانب دون غيرها :

وليس الأدب الاسلامى فى هذه الخصيصة وحيداً و ذلك لأن وجهات النظر و القيم السارية فى البيئات المختلفة تترك لمساتها على تأملات أصحابها و مشاعرهم و تضبطها ضبطاً لأطرها و مبادئها ثم إن قواعد الاستحسان و الاستهجان تختلف فى شعب و طائفة عن شعب آخر و طائفة أخرى ، فلم يكن كل ما افتخر العرب به لائقا فى نظر غيرهم للافتخار ، و العرب أنفسهم لما انقسموا بين أهل المدر و أهل الوبر انقسموا إلى نظرات و مبادىء معينة فى البداوة و الحضارة يعتز الواحد منهما بما لا يعتز به الآخر ، فحب البادية يبعث الشاعر على أن يقول .

و من تكن الحضارة اعجبته فأى رجال بادية ترانا
و من ربط الجحاش فان فينا قنا سلبا و افراسا حسانا

يعلن الشاعر البدوى بذلك التزامه بافكار البادية واستحسانه لها واستهانته بخواطر الحضارة و بتركها ، وحينما يقرض الشعر يزوده بمعانى المادية و ذكر يرافقها ، فيطيل مثلا فى وصف الناقة الحالة محلة جافية كما فعل طرفة بن العبد ، أما الشاعر الحضرى فيختار إطاراً آخرو يلتزم به ، كما نجده فى شعر إمرىء القيس فقد كان متحضرا إلى حد ما إن الالتزام بقيم و آراء فى النطاق الاجتماعى و القومى سواء كان مدنيا أو ثقافيا أو كان دينياً يفرض سيطرته عل أقوال الناس و على اتجاهاتهم كثيراً ، و الأدباء والشعراء - وهم جزء منهم - يعبرون عن هذه الاتجاهات والميول ، ولما جاء الاسلام تبدلت القيم و اصطبغت بصبغة دينية محافظة فاذا كان الأدب الجديد متكيفاً بالروح

الجديدة وملتزماً بالمحافظة على اتجاهات والزهد فى اتجاهات فليس أمراً غريباً ولاعيباً على الأدب الاسلامى ، و إن وجدنا فيه غرابة فماذا نقول عن الأدب الشيوعى و الاشتراكى الذى يلتزم و يتقيد بروح أكثر ما نجد فيها هو الجفاف و التجرد ، و الضرب على وتر واحد من الحياة لا يجاوزه ، فالأديب مهما كان حراً فى أدبه لايخلو من تقيد و التزام كان قليلا أو كثيراً ، أو كان واضحاً أو خفياً .

فتح أبواب جديدة فى الشعر :

ثم أن شعراء الاسلام قد استبدلوا من تلك الجوانب التى تركوها أو زهدوا فيها جوانب جديدة لم تكن فى الشعر السابق و هى جوانب الدعوة و جوانب الأمل فى خير الآخرة و جوانب حب الله ورسوله فالجانب الدنيوى من الشعر قد يكون مشتركا بين عهدين لكن جوانب الدعوة و جوانب الحب لله و الحب لرسوله و الحنين إلى لقاء الله والحذر من عقاب الآخرة أبواب جديدة فى الشعر الاسلامى حلت محل الاباحية و الشهوانية وحب المتاع الزائل والهوى السافل التى تركها وزهد فيها شعراء الاسلام انظروا الجانبين .

يقول القطامى و هو شاعر عربى غير مسلم يذكر الفلسفة الجاهلية للقتال .

و كن إذا أغرن على جناب و اعوزهن نهب حيث كانا
أغرن من الضباب على حلول وضبة إنه من حان حانا
و أحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

و يقول الشاعر الاسلامى فى الحرب مع جيش مسيلمه :

أقول لنفسى حين خود رألها مكانك لما تشفق حين مشفق
و مكانك حتى تنظرى عم تنجلى عماية هذا العارض المتألق
وكونى مع التالى سبيل محمد وإن كذبت نفس المقصر فاصدق

إذا قال سيف الله كروا عليهم كررنا ولم نحفل بقول المعوق

فنحن حينما نقارن بين الشعر الجاهلى و الشعر الاسلامى نتجاهل أن الشعر الاسلامى قد طرق ابوابا جديدة و فتح آفاقاً جديدة من الشعر و اجاد فى هذه الابواب الجديدة من الشعر و نتهم شعراء الاسلام جزافا بانهم لم يقولوا الشعر الحسن كما قاله شعراء الجاهلية .

مع إننا حينما نقارن بين شعر شاعر جاهلى و شعر شاعر أخر من بين فحول عهدهما ، لانقارن بينهما فى غرض واحد معين لأن قوتيهما ونبوغيهما لايتركزان فى أغراض واحدة ، فان الاجادة لدى شاعر تتجلى فى غرض من أغراض الشعر وهى لا تتجلى فى شعر الآخر، فهل نقارن بين النابغة و أمرىء القيس فى اغراض واحدة ألبست لكل واحد منهما مجالات مختلفة عن مجالات الآخر فى القوة و البراعة فلماذا لا نقول أن أمرى القيس ضعيف فى الشعر لأنه لم يحسن الاعتذار و الاستعطاف ، و أن النابغة ضعيف فى الشعر لأنه لم يحسن فى وصف الخيل والصيد كامرىء القيس فلماذا نقيس الشعر الاسلامى بما لا نقيس به الشعر غير الاسلامى فان الشعر الاسلامى إن ترك بعض المجالات القديمة لسبب له وزنه وقيمته فقد خص مجالات أخرى باجادة أكثر و ظهرت براعته فيها بالعكس من الشعر غير الاسلامى .

فان لكل شاعر مجالات فى القول ، ولكل عهد مجالات ، فمن الانصاف أن نزن الشعر فى مجالات قائله وعهده ، و قد تبين من دراسة شعر سيدنا حسان بن ثابت الأنصارى أن الاثر الذى كان يتركه بشعره على النفوس فى عهده الاسلامى كان أكثر مما كان تركه فى عهده الجاهلى وأن كان شعره قد اشتمل فى العهد الجاهلى على روائع عديدة مما له سهم كبير فى رفع مكانته بين الشعراء ولكن دوره الشعرى فى العهد الاسلامى هو الذى بلغ به إلى مكانته الشعرية الخالدة التى بلغها ، ولو لم يكن ذلك لكان

واحداً من عشرات الشعراء الذين عرفوا بالاحسان الشعرى فى العهد الجاهلى ، فالشعر الاسلامى هو الذى ميزه بين الاقران ورفع مكانته من بين معاصريه من الشعراء، ثم أن الاسلام هو الذى حمله على اعتصار قريحته فى مجالات جديدة و إستخراج اللآلى من الشعر الرقيق الرصين فى موضوعاته وكان ذلك اضافة مثرية إلى عدد من قصائده البديعة الرائعة التى قالها فى عهده الجاهلى فى مدائح ملوك غسان و الحيرة وبخاصة قصيدته اللامية التى نالت الاعجاب و التقدير العظيمين و قررت مكانته الشعرية بين الشعراء ، و لكن قصائده فى عهده الاسلامى و هى قصائد مصطبغة بالصبغة الاسلامية المحافظة وخاصة قصائده فى مدح الرسول ﷺ فهى ممتازة بالروعة و الاجادة و بدقة وصف رغم تقيده بالاطار الاسلامى للشعر . وهناك فرق كبير بين أن يقول الشاعر ما يقوله بدون تقيد باطار و بالتقيد باطار ، فاذا لم تضمحل جودته مع التقيد كان ابلغ وابرع ممن يجيد و هو حر وغير متقيد ، و يدل على ذلك أنه هجا قريشا ولم يصب هذا الهجاء ابن قريش العظيم محمد بن عبد الله الهاشمى القرشى فهو يهجو ابن عم الرسول ﷺ أبا سفيان و كان كافرا فى ذلك الوقت .

ردا على هجاءه فيقول :

و قال الله ! قد أرسلت عبداً يقول الحق إن نفع البلاد

شهدت به ، فقوموا صدقوه ، فقلتم : لا نقوم و لا نشاء

لنا فى كل يوم من معد سباب ، أو قتال ، أو هجاء

فنحكم بالقوافى من هجانا و نضرب حين تختلط الدماء

ألا أبلغ أبا سفيان عنى ، فانت مجوف نخب هواء

فان سيوفنا تركتك عبدا و عبد الدار سادتها الاماء

هجوت محمدا فاجبت عنه ، و عند الله ، فى ذاك الجزاء

أتهجوه و لست له بكفء فشركما لخيركما الفداء
هجوت مباركا ، برا ، حنيفا ، أمين الله ، شيمته الوفاء
فمن يهجو رسول الله منكم و يمدحه و ينصره ، سواء
فان أبى و والده و عرضى لعرض محمد منكم وقاء
لسانى صارم لا عيب فيه و بحرى لا تكدره الدلاء

و قد هز بشعره الاسلامى نفوساً أكثر عددا من النفوس التى هزها بشعره الجاهلى فقد كانت مدائحه فى الغساسنة من جيد شعره ، و قد حازبها الصيت و المكانة فى نظر الدارسين للشعر الجاهلى و لما أتى شعره الاسلامى كان تاثيره على نفوس أكثر عددا واوسع نطاقا و أصبح به متميزاً فريداً دون أقرانه جميعا فى التاريخ .

و مراثيه فى رسول الله ﷺ من أقوى المراثى و أشدها تاثيراً على النفس مع حيطة كاملة للقيم الاسلامية التى تفيد بها فى البكاء على الميت مهما يكن عزيزا و محبوبا و أنه يعبر عن كل ذلك فى لفظ جزل و عاطفة موثرة مصورة يقول .

ما بال عينك تنام كانما كحلت مآقيها بكحل الأرمد
جزعا على المهدى أصبح ثاويا يا خير من وطىء الحصى لاتبعد
تفسى تقيك الترب لهفى ليتنى غيبت قبلك فى بقيع الغرقد
بابى وامى من شهدت وفاته فى يوم الاثنين النبى المهتدى
فظللت بعد وفاته متبلداً يا لهف نفسى ليتنى لم أولد
أقيم بعدك بالمدينة بينهم يا ليتنى صبحت سم الاسود
يا بكر آمنة المبارك ذكره و لدتك محصنة بسعد الاسعد
نوراً أضاء على البرية كلها من يهد للنور المبارك يهتد

يا رب ! فاجمعنا معا و نبينا فى جنة تشفى عيون الحسد
و الله اسمع ما لقيت بهالك إلا بكيت على النبى محمد
صلى الاله و من يحف بعرشه و الطيبون على المبارك أحمد

بطيبة رسم للرسول و معهد منير ، وقد تعفو الرسوم وتهمد
ولاتمحى الآيات من دار حرمة بها منبر الهادى الذى كان يصعد
معالم لم تطمس على العهد آيها أتاها البلى ، فالآى منها تجدد
عرفت بها رسم الرسول وعهده وخيراً به واراه فى الترب ملحد
أطالت وقوفا تذرف العين جهدها على طلل القبر الذى فيه أحمد
لقد غيبوا حلما و علما و رحمة عشية علوه الثرى لا يوسد
و راحوا بحزن ليس فيهم نبيهم و قد وهنت منهم ظهور واعضد
يبكون من تبكى السموات يومه ومن قد بكته الأرض والناس أكمد
فاصبح محموداً إلى الله راجعاً يبكيه جفن المرسلات و يحمد
وأمست بلاد الحرم و حشا بقاعها لغيبة ما كانت من الوحى تعهد
قفارا سوى معمورة اللحد ضافها فقيدا ، يبكيه بلاد وغر قد
و مسجده فالموحشات افتقده خلاء له فيه مقام و مقعد
فبكى رسول الله ياعين عبرة و لا اعرفنك الدهر دمعك يجمد
و مالك لا تبكين ذا النعمة التى على الناس منها سابغ يتغمد
فجودى عليه بالدموع و اعولى لفقد الذى لا مثله الدهر يوجد
و ما فقد الماضون مثل محمد و لا مثله حتى القيامة يفقد
اعف و أوفى ذمة بعد ذمة و أقرب منه نائلا ، لا ينكد
و أبذل منه للطريف و تالد إذا ضن معطاء لما كان يتلد

وأكرم حيا فى البيوت إذا انتمى و أكرم جداً أبطحيا يسود
رباه ، ليدأ فاستتم تمامه على أكرم الخيرات رب ممجد

فتبين من الأمثلة أن شعره فى الاسلام لم يضعف و لم يذهب عنه رواءه ، وإن كانت بعض الاغراض الشعرية قد خفتت فى كلامه لعدم موافقتها للقيم الاسلامية التى التزم بها المخضرمون من الشعراء و هذه الجوانب هى المبالغات الكاذبة و المهاترات الساقطة و التملق و الاطراء و الخواطر الآثمة .

و إن وصف الشعر الاسلامى بصفة الضعف و السقوط بالنسبة إلى الشعر الجاهلى وصف بدأه الحاقدون على الاسلام والناقمون على كل ما ينتسب إلى الاسلام أما الذى يسبر الشعر الاسلامى على آلايه ودرره بالحياد والانصاف يجد منها مالايقل عما يجده فى الشعر الجاهلى ، بل و يجد أكثر منه وبجنب ما ابتكره الشعر الاسلامى من أبواب جديدة للشعر ونوع بعض أغراضه الرائعة تنويعاً ، منه تنويعه للمديح ، و إبتكار نوع منه هو المديح النبوى الذى سار فى الناس على مر العصور والأزمان كنوع شعرى بذاته وسمى بالنبويات بالعربية و بالنعت بالفارسية و الأردية ونبغ فيه طائفة من الشعراء ونالوا تقديراً بالغا عنهم فى هذا النوع ، و هذا النوع الشعرى الجديد من المديح امتاز بجمعه لخصائص النسيب الرقيق بالمديح البليغ واجتمع فيه التعظيم مع الحب ، تعظيم لا كالتقديس لأن التقديس لله وحده ، وحب لا كحب النساء لأنه مجال الغرائز الساقطة و الخواطر السافلة .

بدأ هذا النوع الشعرى من الشعراء المخضرمين و استمر بعده فى التاريخ ، فى الشعراء المسلمين و فى لغات الشعوب الاسلامية الأخرى كذلك و لا يزال إلى اليوم ومن نماذج هذا النوع من الشعر فى كلام سيدنا حسان بن ثابت الأنصارى :

و أحسن منك لم ترقط عينى و أجمل منك لم تلد النساء

خلقت مبرءاً من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

و يقول :

أغر ، عليه للنبوة خاتم من الله مشهود يلوح و يشهد
وضم الاله اسم النبى إلى اسمه إذا قال فى الخمس الموذن أشهد
و شق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود ، و هذا محمد
نبى أتانا بعد يأس و فترة من الرسل ، والاوثان فى الأرض تعبد
فامسى سراجا مستنيراً و هاديا يلوح كما لاح الصقيل المهند
و أنذرنا ناراً ، و بشرجنة و علمنا الاسلام فالله نحمد

و تعتبر قصيدة كعب بن زهير فى مدح الرسول ﷺ عند قدومه إليه معتذرا عن اساءاته الماضية من أساسيات هذا النوع الشعرى أيضاً قلدها الشعراء بعده فى العهود الاسلامية و هى تسمى بقصيدة البردة و قصيدة بانت سعاد .

و لقد روى عن الخلفاء الراشدين أيضاً قول الشعر و لكنه لم يزد عن نتف شعرية و ابيات قلائل ، و قد اختلف أيضاً فى نسبتها إليهم و يبدو من انصرافهم إلى المهام الدعوية و الدينية و صحبتهم القريبة مع رسول الله ﷺ أنهم قلما وجدوا فى نفوسهم حاجة إلى العكوف على الشعر والاشتغال به ، ولايمكن الاشتغال بالشعر وقوله إلا مع الفراغ ، أما الانصراف إلى شئون تملأ كل فراغ فى حياة الرجل فانما يصرفه أول ما يصرفه عن الشعر ، ألسنا نجد أمرأ القيس ملك الشعراء الجاهليين لما انصرف إلى جمع العدة و العتاد لاخذ الثأر من أعداء و الده المقتول تضاءل اهتمامه بالشعر و اضمحلت الروعة فى كلامه بالنسبة إلى كلامه السابق الذى كان قرضه فى فراغ و انطلاق .

فلم يكن عجباً فى أن الصحابة المنصرفين إلى أعمال الدعوة و الجهاد لم يكونوا يعكفون على الشعر ، أو إنهم صرفوا اهتمامهم عنه مع أن مشاركتهم فى الأدب المنثور معروفة و كبيرة و ذلك لأن مجالات عملهم فى الاسلام تلاءمت مع عدد من موضوعات الأدب المنثور ، و لم يقرض الشعر فى الاسلام إلا الشعراء الممارسون لقول الشعر قديماً أما فى العهد الجديد فلم يقرضوا إلا عندما وجدوا مجالا لائقاً لقرضه و مرضياً عند الله و رسوله و بوجه خاص الشعراء الذين أراد منهم رسول الله ﷺ أن يقرضوا الشعر دفاعاً عن الاسلام وهم شعراء الأنصار رضى الله عنهم ، و امتاز حسان بن ثابت الأنصارى من بينهم بلقب شاعر الاسلام ، و قد تبين أن رسول الله ﷺ كان يعد الشعر سلاحاً مؤثرا ضد العدو و هو لقوله فى فتح مكة حينما سمع أن عمر بن الخطاب انكر على قائل للشعر دعوه فانه أشد عليهم من النبل و قوله لحسان بن ثابت الانصارى فداك أبى و أمى .

فى هذا الغمار من هجر الشعر و الاقبال عليه درج الشعر الاسلامى فكان فى أول أمره حذرا آخذا بالحيطة الشديدة ، تاركا لمجالات كثيرة من الشعر و طارقا لمجالات معينة ثم مشى على درب اهتدى إليه بفهم تعليمات الاسلام ، فكان دربا إسلامياً للشعر ، ثم تطور فى هذا الدرب وظهرت ابتكارات استطاع بها أن يكون شعرا قوياً متماسكا ممتازاً بخصائصه ، وهى خصائص تتفق مع خصائص الشعر القديم بما تلائمت مع الاسلام و تختلف عن خصائص الشعر الجاهلى التى تعارضت مع الاسلام .

دراسات وأبحاث

- مقدمة المصنف شرح الموطأ
- آراء الامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى
- القرآن كما يراه الغربيون

مقدمة المصفى شرح الموطأ

الامام ولى الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى
تعريب : محمد أكرم الندوى

إن نعم الله سبحانه و تعالى على عباده كثيرة ، لا تعد ولا تحصى ، وأكبر ما أنعم به بعد الخلق و الرزق ، بعثة الأنبياء و الرسل عليهم الصلاة و التسليم ، الذين هدى بهم عباده الذين كانوا يتسكعون فى متاهات الضلالات والظلمات ، وبلغ بهم أحكامه التى نيطت بها مصالح العباد ليتقربوا إلى الله سبحانه و تعالى ، وينجوا من عذاب القبر و عذاب الحشر ، ولا سيما نبينا خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام ، الذى أرسل لاقامة الملة السمحة الواضحة البيضاء ، و شملت دعوته الحمر و السود ، و الشرق و الغرب ، و ألقى الله سبحانه وتعالى علوماً و معارف كثيرة إلى عباده عن طريق نبيه بعبارة النص أو إشارته أو دلالته ، و جعل أمته أفضل الأمم ، و سنته أكمل السنن ، و علومه أحسن العلوم ، و معارفه أوسع المعارف ، فاذ شرفنا الله تعالى بمحض فضله بالايمان بهذه الرسالة العظمى ندعوه أن يوفقنا لاتباع شريعته ظاهرها وباطنها ، وإذ رفعنا بالتمسك بطرف من معارف هذا الجبل الأكبر و علومه ندعو أن يهدينا إلى فهم معانيه على وجه التحقيق دون التقليد ، و العمل به من غير إفراط ولا تفريط ، و يجعل المواهب التى لا تسع عقولنا ، ولا يعلمها إلا الله خصيصا بالنبى ﷺ و يحشرنا مع أتباعه و محبيه و يجزى عنا رواة العلم وحملة الدين الذين بلغوا إلينا علوم النبى ﷺ و مهدوا لنا طريق الفهم و الدراية ، خير الجزاء ، إنه قريب مجيب .

أما بعد ، فيقول الفقير إلى رحمة الله الكريم ولى الله بن عبد الرحيم العمرى نسباً الدهلوى وطنا : إنه أتى على حين من الدهر اضطربت فيه لأجل اختلاف

مذاهب الفقهاء و كثرة أحزاب العلماء و تنازعهم فيما بينهم ، لأنه لا بد من طريق معين للعمل و التعيين من غير ترجيح سفسطة ، و اختلف الناس فى تقرير وجوه الترجيح إجمالا و تفصيلا ، اختلافاً فاحشاً ، فاضطربت و اختلفت إلى كثير من العلماء ، و مددت إليهم يد الاستعانة ، و لكن من دون جدوى ، ثم تضرعت إلى الله سبحانه و تعالى و قلت : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات و الأرض حنيفا و ما أنا من المشركين .

مكانة المؤطأ :

فأشير إلى بكتاب الموطأ للامام الهمام حجة الاسلام مالك بن أنس ، ثم ترسخت هذه الاشارة فى قلبى ، حتى علمت أنه ليس اليوم كتاب على أديم الأرض من كتب الفقه أقوى من كتاب مالك ، لأن نسبة الأفضلية إلى كتاب إما لفضل المؤلف أو لالتزامه الصحة ، أو لاستفاضة أحاديثه ، أو تلقيه الناس بالقبول ، أو جودة ترتيبه و استيعاب المقاصد المهمة ، و ما إلى ذلك من وجوه الترجيح ، فان هذه الوجوه كلها متوفرة فى كتاب مالك بالنسبة إلى سائر الكتب الموجودة على وجه الأرض .

ثناء الأئمة على الامام مالك :

أما فضل المؤلف فليس على وجه الأرض كتاب ألفه أحد أتباع التابعين إلا الموطأ وليس كتاب غير الموطأ أجمع المحدثون على جلالة مؤلفه ، وكذلك ليس اليوم كتاب باشره إمام من أئمة الفقه بالتأليف إلا الموطأ ، قال الشافعى : « إذا ذكر العلماء فمالك النجم ، و ما أحد أمن على فى علم الله من مالك (١) » و قال : « مالك وابن عيينة القرينان لو لا هما لذهب علم الحجاز (٢) » وقال : « العلم يدور

(١) تنوير الحوالك للسيوطى ج ١ ص ٣ . (٢) نفس المصدر .

على ثلاثة : مالك بن أنس و سفيان بن عيينة و ليث بن سعد » (١) و قال سفيان بن عيينة فى حديث « يوشك أن يضرب الناس أكباد الابل يطلبون العلم فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة » : نرى أنه مالك بن أنس » (٢) وقال : رحم الله مالكا ما كان أشد انتقاد مالك للرجال (٣) ، و قال : « كان مالك لا يبلغ من الحديث إلا صحيحاً و لا يحدث إلا عن ثقات الناس ، و ما أرى المدينة إلا ستخرب بعد موت مالك » (٤) ، وقال عبد الرحمن بن مهدى : « ما بقى على وجه الأرض أحد أمن على حديث رسول الله ﷺ من مالك بن أنس » (٥) وقال : « ما أقدم على مالك فى صحة الحديث أحداً » (٦) ، وقال أيضاً : « سفيان الثورى إمام فى الحديث و ليس بامام فى السنة ، و الأوزاعى إمام فى السنة و ليس بامام فى الحديث ، ومالك بن أنس إمام فيهما جميعا » (٧) ، سئل ابن الصلاح فى فتاويه عن معنى هذا الكلام فقال : «السنة هاهنا ضد البدعة فقد يكون الانسان عالماً بالحديث و لا يكون عالماً بالسنة » (٨) .

الفرق بين اصطلاح الحديث و السنة :

يقول المؤلف : إن تفسير هذا الكلام يتطلب البسط والتفصيل فاعلم أن السلف كان لهم منهاجان فى استنباط الأحكام ، أحدهما أنهم كانوا يجمعون القرآن و الحديث و آثار الصحابة ، ويستنبطون منها الأحكام ، و هذا أصل منهج المحدثين ، والآخر

(١) التمهيد لابن عبد البر ج ١ ص ٦٢
(٢) الترمذى باب عالم المدينة من كتاب العلم .
(٣) البداية و النهاية لابن كثير ج ١٠ ص ١٧٤ .
(٤) التنوير ج ١ ص ٣ .
(٥) المصدر نفسه .
(٦) التمهيد ج ١ ص ٦٥ .
(٧) و (٨) التنوير ج ١ ص ٣ .

أنهم كانوا يحفظون القواعد الكلية التى نقحها و هذبها جمع من الأئمة من غير نظر إلى مصادرها ، فاذا حدثت حادثة عرضوها على تلك الكليات واستنبطوا منها حكمها ، و هذا أصل منهج الفقهاء ، فغلب على بعض السلف المنهج الأول ، و على البعض الآخر المنهج الثانى ، و إلى هذا يشير ما قيل من أن حماد بن أبى سليمان كان أعلم الناس بمسائل إبراهيم النخعى أى بقواعده الكلية التى نقحها وهذبها ، ولما كان مالك يعبر فى كتابه عن القواعد التى قررها علماء المدينة بالسنة حيث يقول : « و السنة التى لا خلاف فيها عندنا كذا و كذا » تبنى عبد الرحمن بن مهدى اصطلاحه هذا و قال : كان سفيان الثورى إماما فى نقل الحديث و آثار الصحابة بأسانيد صحيحة ، و إقامة ألفاظ الحديث و تفريقه فى الأبواب الفقهية و استحضار أحاديث كل باب ، و كان الأوزاعى إماماً فى معرفة القواعد التى وضعها السلف فى كل باب من أبواب الفقه ، و كان مالك إماما فى كلا البابين ، وهذا المعنى لدى المحدثين فى ثبوته و ظهوره كالشمس فى رابعة النهار .

و قال أيضاً : « ما رأيت أعقل من مالك (١) » و قال يحيى بن سعيد القطان و يحيى بن معين : « مالك أمير المؤمنين فى الحديث (٢) » و قال ابن معين : كان مالك من حجج الله على خلقه (٣) » وقال ابن وهب : « لو لا مالك و الليث لضللنا (٤) » و قال ابن قدامة : « كان مالك أحفظ أهل زمانه (٥) » وسأل عبد الله بن أحمد بن حنبل أباه : من أثبت أصحاب الزهرى ؟ قال : « مالك ابن أنس فى كل شئ (٦) » و قال البخارى : « أصح الأسانيد مالك عن نافع

(١) التنوير ج ١ ص ٣ .
(٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر .
(٤) التمهيد ج ١ ص ٦١ .
(٥) نفس المصدر ص ٨١ .
(٦) التنوير ج ١ ص ٣ .

عن ابن عمر (١) ، وفى الحلية لأبى نعيم عن مالك : إنى ما بت ليلة إلا ورأيت النبى ﷺ ، (٢) .

نسب الامام مالك :

و هو مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر بن عمرو بن الحارث الأصبحى ، و أبو عامر صحابى جليل شهد مع النبى ﷺ الغزوات إلا غزوة بدر ، و مالك من كبار التابعين وعلمائهم و أحد الأربعة الذين حملوا عثمان ليلا إلى قبره ، (٣) . يروى عن عمر و عثمان ، و أبو سهيل نافع بن عامر عم مالك من ثقات التابعين ، و لمالك عنه روايات كثيرة .

ولادته :

ولد مالك سنة ثلاث وتسعين وقيل : سنة تسعين . حملت به أمه ثلاث سنوات .

صفته :

كان مالك طويلا شديد البياض إلى الشقرة ، أشيب الرأس و اللحية .

شيوخه :

و أكثر رواياته عن أهل المدينة ، كان عمر أولا مرجع الفقهاء و المفتين ، ثم خلفه فقهاء الصحابة كابن عمر و عائشة و ابن عباس و أبى هريرة و أنس وجابر ، ثم قام بحمل هذا العبء الفقهاء السبعة كسعيد بن المسيب و عروة و سالم و قاسم ، و خلفهم الزهرى و يحيى بن سعيد و زيد بن أسلم و ربيعة و أبو الزناد ونافع ، وورثهم مالك ، و دون أحاديثهم و آثارهم و أودعها الكتب و أقبل عليه الناس من سائر الأمصار يأخذون عنه الحديث و الفقه ، و اشتهر وطارصيته فى الآفاق حتى لم يكن فى عصره من يساويه فى القبول و الشهرة ومكث فى المدينة روح العالم و قلب البلاد يحدث و يفتى .

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر ج ١٠ ص ٦ .
(٢) التنوير ج ١ ص ٣ . (٣) نفس المصدر ص ٢ .

وفاته :

مرض مالك يوم الأحد فأقام مريضاً اثنين و عشرين يوماً ، و توفى إلى رحمة الله يوم الأحد لعشر خلون من ربيع الأول ، و قيل لأربع عشرة خلت من ربيع الأول سنة تسع و تسعين ومائة (١) . قال سحنون : « توفى مالك وهو ابن سبع و ثمانين سنة » (٢) و تولى منصب الاجتهاد و الافتاء بالمدينة إلى ستين سنة ، و كانت ترد إليه الأسئلة من أصقاع الأرض فيرد عليها رداً علمياً صحيحاً .

هيبته :

قال سفيان الثورى :

يدع الجواب فلا يراجع هيبة ... و السائلون نواكس الأذقان
أدب الوقار و عز سلطان التقى ... فهو المهاب و ليس ذا سلطان (٣)

بعض ما قيل فى رثائه :

و رأى عمر بن سعد الأنصارى فى المنام ليلة توفى مالك أن قائلا يقول :

لقد أصبح الاسلام زعزع ركنه ... غداة ثوى الهادى لدى ملحد القبر
إمام الهدى ما زال للعلم صائنا ... عليه سلام الله فى آخر الدهر (٤)

الامام مالك ملتقى الحنفية و الشافعية :

و اعلم أن المدينة - كما قدمنا - كانت مرجع الفضلاء و محط رجال العلماء حتى آل الأمر إلى مالك و ورث سبعة من العلماء الأجلة ، و أدخل فى كتابه ما كان يحفظ من الأحاديث و الآثار ، و رجع الناس قاطبة إلى كتابه ، فليس مذهب الشافعى إلا تفصيلا لكتابه ، و كذلك فقه محمد فى المبسوط مقتبس من علم مالك ، واعلم أن الأئمة الأربعة : أبا حنيفة و مالكا والشافعى وأحمد ، هم الذين

(١) التنوير ج ١ ص ٣ . (٢) التمهيد ج ١ ص ٨٩ .
(٣) المدارك للقاضى عياض ج ٢ ص ٣٤ . (٤) التنوير ص ٤ .

سادت العالم علومهم ، و أخذ الآخران منهم من مالك و استمدا من علومه ، ولم يكن من هؤلاء من هو من أتباع التابعين إلا أبا حنيفة و مالكا ، أما أولهما فلم يذكر رواياته أئمة المحدثين كأحمد و البخارى و مسلم و الترمذى و أبى داؤد و النسائى وابن ماجة فى كتبهم ، ولم تتصل سلسلة الرواة الثقات به ، و أما الآخر فقد أجمع أهل الحديث على أنه إذا ثبت الحديث بسنده فقد بلغ ذروة الصحة .

أصحية الموطأ :

و أما التزام مالك للصحة فكان الشافعى يقول : «ما على ظهر الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك (١) » و فى رواية : « ما فى الأرض بعد كتاب الله أكثر صوابا من موطأ مالك (٢)» وفى رواية» : ما وضع على الأرض كتاب هو أقرب إلى القرآن من كتاب مالك (٣) » و قال الحافظ المغاطائى : «أول من صنف الصحيح مالك (٤) » قال ابن حجر : « كتاب مالك صحيح عنده وعند من تقلده على ما اقتضاه نظره من الاحتجاج بالمرسل و المنقطع وغيرهما» (٥).

حجية المرسل عند مالك :

إن العلماء قد اختلفوا فى العمل بالمرسل والمنقطع فذهب مالك و أبو حنيفة و أكثر العلماء من أتباع التابعين إلى صحة العمل به ، إنهم يحتجون بقول عمر وغيره من الصحابة وإجماع جمع من تابعى المدينة فتمسك مالك بما اقتضاه أصله من عدم قدح الارسال فى الصحة ، فصح كتابه لديه وأبى حنيفة وسائر أتباع التابعين ، وزاد السيوطى على ابن حجر فقال : قلت ما فيه من المراسيل فانها مع كونها حجة عنده وعند من وافقه من الأئمة على الاحتجاج بالمرسل فهى أيضاً حجة عندنا إذا اعتضد ، و ما من مرسل فى الموطأ إلا وله عاضد أو عواضد فالصواب إطلاق أن الموطأ

(١) التنوير ج ١ ص ٧ (٢) التمهيد ص ٧٧ . (٣) التنوير ص ٨ .
(٤) التنوير ص ٨ . (٥) نفس المصدر ص ٩ .

صحيح لا يستثنى منه شئ (١) »

الكتب الستة و غيرها شروح للموطأ :

و يقول المؤلف : إن أصحاب الكتب الستة و الحاكم فى المستدرك بذلوا وسعهم فى وصل مراسيل مالك و رفع موقوفاته ، كأن هذه الكتب شروح للموطأ و متممات له ، و لا يوجد موقوف صحابى و لا أثر تابعى إلا و له مأخذ من الكتاب و السنة ، تجده فى شرحنا هذا ، و قد ألف الحافظ ابن عبد البر كتاب التمهيد فى وصل ما فى الموطأ من المراسيل ، و قال : « وجميع ما فى الموطأ من قوله بلغنى أو عن ثقة عندى وأمثال ذلك واحد وستون حديثاً ، كلها مسندة من غير طريق مالك إلا أربعة أحاديث لم نعرف مأخذها ، أحدها : إنى لا أنسى و لكن أنسى ، و الثانى : إن رسول الله ﷺ أرى أعمار الناس ، والثالث : قول معاذ : آخر ما أوصانى رسول الله ﷺ وقد وضعت رجلى فى الغرز أن قال حسن خلقك للناس ، والحديث الرابع : «إذا انشأت بحرية ثم تشأمت فتلك عين عذيقة» (٢).

يقول المؤلف : هذه الأحاديث و إن لم تثبت بهذه الألفاظ فمعناها صحيح ، وسوف أتكلم عنها فى مواضعها .

شهرة الموطأ :

أما شهرة الموطأ فقد رواه عنه جم غفير من الخلفاء و العلماء ، فمن الخلفاء الرشيد و ابناه الأمين و المامون ، و قبل الهادى و المهدى ، و من الأئمة الشافعى ومحمد بن الحسن ، و الامام أحمد بن حنبل عن عبد الرحمن بن مهدى وجماعة عنه ، و أبو يوسف عن رجل عنه ، و من المحدثين جماعات كثيرة ، و من أصحاب مالك يحيى بن يحيى المصمودى و ابن القاسم والأصبغ ، و من الصوفية ذوالنون المصرى ، و من المصريين و الشاميين و العراقيين و اليمنيين ، و الخراسانيين خلائق .

(١) نفس المصدر . (٢) التنوير ج ١ ص ٨ .

نسخ الموطأ :

و روايات الموطأ أكثر من ثلاثين ، و وضع الحافظ ابن عبد البر كتابيه التمهيد و الاستذكار على اثنى عشرة رواية منها ، و هى أشهرها و أقواها .

عناية العلماء بالموطأ :

قال القاضى عياض : لم يعن بكتاب من كتب الحديث اعتناء الناس بالموطأ » (١) فقد شرحه من المتقدمين ابن عبد البر فى التمهيد و الاستذكار ، و أبو الوليد بن الصفار فى كتابه « الموعب » و سمى جماعة ، و ألف القاضى عياض كتاباً فى بيان التحريف و التصحيف سماه « المشارق » و ألف بعضهم مسنداً له ، و بحث بعضهم فى أسماء رجاله و وصل منقطعاته ، و لم يزل العلماء يخرجون أحاديثه و يشرحونه و يروونه ، حتى رواه هذا الفقير عن بعض أهل مكة مسلسلا بقراءة الجميع أو سماعه إلى مالك بغير الانقطاع و لا يوجد اليوم على وجه الأرض كتاب ألفه من عاصر مالكاً ، فضلا عن تسلسل السماع و الرواية فيه .

تلقى المسلمين للموطأ بالقبول :

و أما تلقى المسلمين له بالقبول ، فهو عمدة مذاهب مالك و أساسه ، و عمدة مذهب الشافعى و رأسه مهما تعقب فى بعض المواضع وخالفه فى ترجيح الروايات ، و أصل فقه محمد فى كتابه المبسوط و غيره ، فان الآثار التى يرويها عن أبى حنيفة لا تكفى ساثر مسائل الفقه ، و ما أكثر ما يقول فى الموطأ : « و به أقول و به كان يقول أبو حنيفة » وأما تلقى أصحاب الكتب الستة له بالقبول فيظهر من أن البخارى إذا وجد حديثاً مسنداً عن طريق مالك لا يعدل عنه إلى رواية غيره ، إلا أن تنوفر فيه شروطه فيذكر له المتابعات و الشواهد ، و فى كثير من مواضع كتابه يستشهد لآثار الموطأ باشارات الحديث .

(١) التنوير ص ١٢

ترتيب الموطأ و تبويبه :

أما الترتيب والاستيعاب فاعلم أن آثار النبى ﷺ لم تكن مدونة فى عصر الصحابة و التابعين حتى استخلف عمر ، بن عبد العزيز و كتب إلى فقهاء عصره أن يدونوا سنن النبى ﷺ وآثار عمر ، فصنع ابن شهاب فى ذلك كتاباً من دون ترتيب و لا تبويب ، ثم اشتغل بالتأليف و التبويب كبار أهل الطبقة الثالثة ، فدون الربيع بن صبيح ، و سعيد بن أبى عروبة ، طرفا من العلم ، ثم دون مالك الأحكام و تكلم فى سائر أبواب الفقه ، و توخى القوى من حديث أهل الحجاز و شرحه بالمراسيل و البلاغيات ، و مزجه بأقوال الصحابة و فتاوى التابعين ، وصنف ابن جريج بمكة ، و الأوزاعى بالشام ، و سفيان الثورى بالكوفة ، وحماد بن سلمة بالبصرة ، وهشيم بواسط ، ومعمر باليمن ، و ابن المبارك بخراسان ، و جرير بن عبد الحميد برى قريباً من اليمن ، وعمت طريقة تأليف المسانيد فى نحو المائتين ، و أفردوا حديث النبى ﷺ عن الآثار و غيرها .

انتقاء مالك للأحاديث :

و وضع الامام مالك الموطأ على عشرة آلاف حديث ، ثم لم يزل ينقق حتى بقى هذا ، وقيل لأبى حاتم الرازى : بماذا سمى الموطأ موطأ ؟ قال : شئ قد صنفه و وطأه للناس حتى قيل موطأ مالك بن أنس (١) » و عمل الناس فى عصره المؤطآت فقيل له فى ذلك اشتغلت نفسك بهذا الكتاب و قد شركك فيه الناس وعملوا أمثاله ، قال : « لا يبقى إلا ما يبتغى به وجه الله » فلم يبق لكتاب من هذه الكتب عين ولا أثر كأنها ألقيت فى البئر ، وسأل مالك يوماً مطرف بن عبد الله : ما يقول الناس فى موطائى ؟ قال فقلت له : «الناس رجلان محب مطر وحاسد مقتر» فقال له مالك « إن مد بك العمر فسترى ما يريد الله به » (٢) .

عدد الأحاديث فى الموطأ :

قال أبو بكر الأبهرى : جملة ما فى الموطأ من الآثار عن النبى ﷺ و عن

(١) التنوير ج ١ ص ٦ .

(٢) التمهيد ص ٨٥ .

الصحابة والتابعين ألف وسبع مائة وعشرون حديثاً ، المسند منها ست مائة ، والمرسل مائتان و اثنان وعشرون ، والموقوف ست مائة وثلاثة عشر ، و من قول التابعين مائتان و خمسة و سبعون (١) ، و قال ابن حزم : أحصيت ما فى موطأ مالك فوجدت فيه من المسند خمسمائة ونيفاً ، وفيه ثلاثمائة ونيف مرسل ، والله أعلم بحقيقة الحال (٢) .

وبالجملة فقد بذل فى هذا الشرح و سعى فى ترتيبه ترتيباً فقهياً كما سترى .

قصيدة سعدون فى مدح الموطأ :

و لسعدون قصيدة فى مدح الموطأ أذكرها فيما يلى :

أقول لمن يروى الحديث و يكتب ... و يسلك سبل الفقه فيه و يطلب
إن أحببت أن تدعى لدى الحق عالماً ... فلا تعد ما تحوى من العلم يثرب
أتترك داراً كان بين بيوتها ... يروح و يغدو جبرئيل المقرب
ومات رسول الله فيها و بعده ... بسنته أصحابه قد تأدبوا
و فرق شمل العلم فى تابعيهم ... و كل امرىء منهم له فيه مذهب
فخلصه بالسبل للناس مالك ... و منه صحيح فى المحبس و أجرب
فأبدى بتصحيح الرواية داءه ... و تصحيحها فيه دواء مجرب
و لو لم يلح نور الموطأ لمن سرى ... بليل عماه ما درى أين يذهب
فبادر موطأ مالك قبل فوته ... فما بعده إن فات للحق مطلب
و دع للموطأ كل علم تريده ... فان الموطأ الشمس و العلم كوكب
هو الأصل طاب الفرع منه لطيبه ... و لم لايطيب الفرع والأصل طيب
هو العلم عند الله بعد كتابه ... و فيه لسان الصدق بالحق معرب
لقد أعربت آثاره ببيانها ... فليس لها فى العالمين مكذب

(١) التنوير ج ١ ص ٩ .
(٢) نفس المصدر .

و مما به أهل الحجاز تفاخروا ... بأن الموطأ بالعراق مجبب
و من لم يكن كتب الموطأ ببيته ... فذاك من التوفيق بيت مخيب
أتعجب منه إذ علا فى حياته ... تعاليه من بعد المنية أعجب
جزى الله عنا فى موطاه مالكا ... بأفضل ما يجزى اللبيب المهذب
لقد أحسن التخليص فى كل ما روى ... كذا فعل من يخشى الاله و يرهب
لقد فاق أهل العلم حيا و ميتا ... فأضحت به الأمثال للناس تضرب
و ما فاقهم إلا بتقوى و خشية ... و إذ كان يرضى فى الاله و يغضب
فلا زال يسقى قبره كل عارض ... بمنبثق ظلت عزاليه تسكب (١)

الموطأ قدوة فى طريق الفقه و الاجتهاد :

قد عرف بالضرورة أن طريق الاجتهاد و الفقه أى معرفة الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية مسدود إلا عن طريق ، و هو أن يجعل الموطأ قدوة له ، و يعرف وصل مراسيله و مأخذ أقوال الصحابة و التابعين و ينشئ فى نفسه القدرة على الاجتهاد ، أى تحديد معانى الألفاظ و تطبيق الدلائل ، و تبيين الأركان و الشروط و الآداب ، و استنباط القواعد الكلية الجامعة المانعة ، و معرفة علل الأحكام و عمومها و خصوصها حسب ما تقتضى العلل ، و يعرف المواضع التى تعقب فيها الشافعى و غيره من الأئمة الامام مالكا ثم يجتهد لمعرفة أحكام الله بصورة تفصيلية ، و يعمل باليقين أو غالب الرأى باقامة الدلائل على تلك المسائل .

معنى الاجتهاد المطلق :

و تفصيل هذا الاجمال أن الاجتهاد فرض كفاية فى كل عصر ، و أعنى بالاجتهاد ، الاجتهاد المطلق كاجتهاد الشافعى مثلا ، فلا يحتاج إلى شخص و يعتمد عليه فى معرفة الجرح و التعديل و معرفة اللغات و ما إلى ذلك ، و لا يقلد أحداً ممن سبقه ، بل يتولى بنفسه استخراج الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية و التفريع و الترتيب ، و إن كان ذلك فى ضوء أقوال بعض الأئمة المتبوعين .

(١) المدارك ج ٢ ص ٧٨ ، مع اختلاف يسير فى بعض الألفاظ .

آراء الامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى
فى
تاريخ التشريع الاسلامى

-١١-

الأستاذ سلمان الحسينى الندوى

نقد أصول المحدثين :

لقد كان المحدثون الذين سبق ذكرهم و الحديث عنهم يأخذون بتلك القواعد التى استخرجها الامام الدهلوى من صنيعهم ، و قد أسلفت ذكرها ، من غير أن يتواضعوا على هذه القواعد كأصول محررة معروفة ، بل لأنها كانت تلائم ذوقهم ، و منهجهم فى العمل ، و طريقتهم فى البحث ، و كان أساس تلك القواعد اتباع الأثر المروى عن رسول الله - ﷺ - بسند متصل ثابت ، و لذلك كان جل بحثهم فى معرفة الأحاديث الصحيحة ، يجمعونها و يسافرون لها ، و يفتشون عن أسانيدها و رجالها ، ولا يمكننا أن نقول إن كل ما تصالحوا عليه أو تعاملوا عليه من أصول و ضوابط كانت منصوصاً عليها ، بل كانت هناك أصول مستخرجة من صنيع الأوائل ، و أصول تعتمد على الاجتهاد و القياس ، و لذلك فان الادعاء بأن هذه الأصول لا يدخلها الخلل و لا يؤتى من قبلها لا يقوم على أساس علمى متين ، وقد تفطن الامام الدهلوى إلى خطر الخوض فى مثل هذه الأصول والاعتماد عليها كلياً ، وما ينجم عن ذلك من تحجر أو افتيات فى الرأى ، ونبه إلى ذلك قائلا :

« و لا ينبغى لمحدث أن يتعمق فى القواعد التى أحكمها أصحابه ، و ليست مما نص عليه الشارع ، فيرد به حديثاً ، أو قياساً صحيحاً كرد ما فيه أدنى شائبة الارسال والانقطاع كما فعله ابن حزم فى حديث تحريم المعازف (١) لشائبة الانقطاع

(١) و هو قوله (ﷺ) : « ليكونن فى أمتى أقوام يستحلون الحر والحرير و الخمر و المعازف » ، الحديث .

فى رواية البخارى (١) على أنه فى نفسه متصل صحيح (٢) ، فان مثله إنما يصار إليه عند التعارض (٣) .

و كقولهم : فلان أحفظ لحديث فلان من غيره ، فيرجحون حديثه على حديث غيره لذلك و إن كان فى الآخر ألف وجه من الرجحان (٤) (٥) .

(١) أخرجه البخارى فى الأشربة باب ما جاء فيمن يستحل الخمر و يسميه بغير اسمه ، وهو من تعليقاته ، و انظر الكلام على الحديث فى فتح البارى للحافظ ابن حجر ج ١٠ ص ٥٢ - ٥٣ ، طبع الرياض ، و قد صرح الحافظ ابن حجر بأنه يصلح للقبول ، و كل ما يذكره البخارى معلقا بصيغة الجزم فهو صحيح إلى من علق عنه ، وقد جاءت هذه الرواية موصولة فى (مستخرج الاسماعيلى) و فى المعجم الكبير للطبرانى ، و مستخرج أبى نعيم و صحيح ابن حبان .

(٢) و قال ابن الصلاح : « و لا التفات إلى أبى محمد ابن حزم الظاهرى فى رده ما أخرجه البخارى فزعم ابن حزم أنه منقطع فيما بين البخارى وهشام و أخطا فى ذلك من وجوه ، و الحديث صحيح معروف الاتصال بشرط الصحيح - انظر مقدمة ابن الصلاح ص ٦١ - ٦٢ طبع المدينة المنورة بتحقيق الأستاذ نور الدين عتر .

(٣) أى حيث يوجد حديث آخر يعارضه ، وليس الأمر فى تحريم المعازف كذلك فلم يرد ما يعارضه ،

(٤) الترجيح يكون بأسباب كثيرة فالاعتماد على وجه واحد من الترجيح فى حديث و الاغضاء عن وجوه متعددة فى آخر ليس ترجيحاً صحيحاً .

(٥) الانصاف ص ٦٢ .

كذلك تناول الامام الخطابى - الذى انصف الفريقين: فريق المحدثين وفريق الفقهاء - طريقة المحدثين ومنهجهم بشئ من النقد وعاب عليهم - و ليس المراد بهم أئمة المحدثين ، بل أتباعهم و أتباع أتباعهم - وقوفهم على الألفاظ دون الغوص فى المعانى ، و عدم تفهم النصوص فى إطار الاسلام العام ، قال :

كلام الخطابى فى أهل الحديث :

« فأما هذه الطبقة الذين هم أهل الحديث و الأثر فان الأكثرين إنما وكدهم (١) : الروايات و جمع الطرق ، وطلب الغريب والشاذ من الحديث الذى أكثره موضوع أو مقلوب لا يراعون المتون ولا يتفهمون المعانى ، ولا يستنبطون سرها ، و لا يستخرجون ركازها (٢) وفقهها ، و ربما عابوا الفقهاء ، و تناولوهم بالطعن و ادعوا عليهم مخالفة السنن ، و لا يعلمون أنهم عن مبلغ ما أوتوه من العلم قاصرون و بسوء القول فيهم آثمون » (٣) .

لا بد من تعاون الفريقين :

و على كل ، فان منهج المحدثين و أصولهم و قواعدهم التى يسيرون عليها ليست كلها مما نص عليها الشارع ، وهم فى ذلك يساوون الفقهاء ، و كل واحد من الفريقين فى اختصاصه لا يستغنى عن الفريق الآخر ، و هذا الذى أكده الامام الدهلوى فقال :

(١) الوكد بضم الواو هو الفعل و الدأب و القصد ، يقال : ما زال ذلك وكدى : أى دأبى و قصدى ، أنظر لسان العرب (٣/ ٤٦٧) .

(٢) الركاز : قطع ذهب و فضة تخرج من الأرض أو المعدن (لسان العرب ٥/ ٣٥٦) .

(٣) الانصاف ص ٦٥ .

« فمن كان من أهل الحديث ينبغى أن يعرض ما اختاره وذهب إليه على رأى المجتهدين من التابعين و من بعدهم ، و من كان من أهل التخريج ينبغى له أن يحصل من السنن ما يحترز به من مخالفة التصريح الصحيح ، و من القول برأيه فيما فيه حديث أو أثر بقدر الطاقة (١) » .

الفقه و الفقهاء :

الفقه هو الفهم و كمال العقل ، قال ثعلب : يقال : فقه الرجل إذا كمل : وفقه : إذا شدا شيئاً من الفقه ، و قال ابن قتيبة الدينورى : الفقه فى اللغة : الفهم ، يقال : فلان لا يفقه قولى ، قال الله - تعالى - « وإن من شئ إلا يسبح بحمده و لكن لا تفقهون تسبيحهم (٢) (٣) » ، و قد جاءت كلمة الفقه فى القرآن الكريم مراراً و تكراراً ، فتارة قيل : لهم قلوب لا يفقهون بها (٤) » ، و نعى القرآن الكريم على المنافقين قلة إدراكهم لايمان المؤمنين ، وتفكيرهم السطحى السخيف و إنهم لا يعلمون أن لله خزائن السماوات و الأرض ، فقال: « و لكن المنافقين لا يفقهون » (٥) .

وحث المؤمنين على أن يكون منهم طوائف من طلاب العلم يجولون الآفاق ، يطلون العلم و يتفقهون فى الدين فقال تعالى : « فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين و لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » (٦)

(١) الانصاف ص ٦٢ .

(٢) سورة الاسراء الآية ٤٤ .

(٣) أنظر « الفقيه و المتفقه » للخطيب البغدادى ج ١ ص ٥٣ - ٥٤ باب بيان الفقه .

(٤) سورة الأعراف الآية ١٧٩ .

(٥) سورة المنافقين الآية ٧ .

(٦) سورة التوبة الآية ١٢٢ .

ومدح رسول الله - ﷺ - الفقه ، و أشاد به و دعا به لبعض أصحابه ، فقال : « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » (١) و قال : « الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام إذا فقهوا » (٢) و قال : « فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه و رب حامل فقه ليس بفقيه » (٣) و دعا لابن عباس فقال : « أللهم فقهه فى الدين و علمه التأويل » (٤) .

تفقه الصحابة رضى الله عنهم :

لقد تقدم أن الصحابة - رضى الله عنهم - كان منهم من يأخذ بظاهر كلام الرسول - ﷺ - و كان منهم من يغوص فى معانيه ، و يفكر فى محتملاته ، و محتوياته ، و يستنبط مغزاه و روحه ، و قد كان مثل هؤلاء من الصحابة - رضى الله عنه - ممن وسد إليهم الافتاء كالخلفاء الأربعة وعبد الله بن سعود ومعاذ ابن جبل وعبد الله بن عباس ، و قد كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كما لا يخفى على دارس ذى بصيرة نافذة فى الدين ، يتفرس المصالح و الحكم التى راعتها الشريعة الاسلامية ، و يصيب لب الدين ، و جوهره ، و قد بشره رسول الله - ﷺ - بملازمة الحق معه ، و فرار الباطل منه (٥) ، و لم يكن

(١) أخرجه الترمذى فى العلم باب إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه فى الدين .

(٢) أخرج الخطيب هذه الآثار و غيرها فى كتابه « الفقيه و المتفقه » .

(٣) أخرجه الترمذى فى العلم رقم الحديث ٢٦٥٨ و أبو داؤد فى العلم رقم ٣٦٦٠ .

(٤) ورد معنى هذا الحديث فى الصحيحين ، أما هذا اللفظ فقد أخرجه أحمد : ج ١ ص ٢٦٤ و رواه ابن حبان و الطبرانى أيضاً .

(٥) أخرجه الترمذى فى المناقب عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله - ﷺ - قال : « إن الله جعل الحق على لسان عمر و قلبه » و هو حديث حسن صحيح ، و أخرج مثله أبو داؤد فى الخراج و الامارة ، و أخرج البخارى و مسلم عن سعد بن أبى وقاص فى فضائل الصحابة ، فى حديث طويل ، أن رسول الله ﷺ قال لعمر : ما لقيك الشيطان سالكا فجاً إلا سلك فجاً غير فجك .

هذا الفضل الذى حازه عمر - رضى الله عنه - لكثرة تحمله لأحاديث رسول الله - ﷺ - وكثرة حفظه ، فلعله يفوقه فيه أبو هريرة - رضى الله عنه - وغيره ، إنما يرجع الفضل فى هذه المكانة التى بلغها من النبى - ﷺ - و من الاسلام ، ذلك الفهم العميق ، والفقه الدقيق ، والحكمة الراسخة ، و البصيرة النافذة ، التى كانت مواهب ربانية ، لا تكسب و لا تتاقى و لكن تصقل و تهذب و تنمى .

النظرة الفقهية قد تخالف النظرة الحديثية :

و لا بد لفهم دور الفقهاء و مكانتهم فى الاسلام من فهم مراتب الصحابة - رضى الله عنهم - و التلمس لأسباب فضل بعضهم على بعض ، و من هنا تظهر قيمة أقوال الصحابة ، و أحاديثهم رفعاً و وقفاً ، و ليست القواعد الحديثية فى الأحاديث المرفوعة والموقوفة مع وجود التعارض قواعد صلبة غير مرنة ، بل الفقه فى الدين أحياناً كثيرة يرجح شيئاً على شئ وإن كانت قاعدة المحدثين تخالف ذلك ، و ليس ذلك دون قيود أو ضوابط ، و لكنها ضوابط المصالح والحكم الاسلامية .

أصول الأئمة الفقهاء :

ومن هنا فان موقف الباحث المنصف من الأئمة الفقهاء، ينبغى أن يكون إيجابياً ، فأصولهم كأصول المحدثين من حيث هى أصول ، و لكنها عند التطبيق و الحكم

على جزئية من جزئيات المسائل ، قد تشتط و تبعد عن الصواب ، فما كل قاعدة — و لو كانت مصيبة — تطبق على كل جزئية و لو كانت مستثناة .

اشتغال الفقهاء بالاستنباط :

لقد كان الفقهاء الأوائل من التابعين و أتباعهم من الأئمة الأربعة و غيرهم أوتوا هذا الفهم الغائص فى حقائق الدين - مع ما بينهم من تفاوت فى المراتب و حال التفقه - و لذلك كانت لهم أصول لا تتفق جميعها مع أصول المحدثين ، و كانت لهم أقوال و فتاوى لايوافقهم عليها كثير من المحدثين إلا أن الشقة بينهما لم تكن بعيدة ألبتة إلا أهل الرأى الذين سبقوا بما آل إليه أتباع جميع الفقهاء فيما بعد من كثرة التفريعات و الفروض و التقديرات ، و قد كان هذا الفهم يحملهم على استنباط المعانى واستخراج الأصول و إذ كانوا ممن أشارت إليهم الآية الكريمة « ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » (١) ، كما أنهم لعدم تصديهم لاملاء الحديث ، ودروسه و اشتغالهم بالفقه و تحرير المسائل و إجابة المستفتين فى الجزئيات الكثيرة التى لم ينص عليها فى الكتاب و لا فى السنة ، و لم يجدوا فى أقوال الصحابة رضى الله عنهم ما يتمسكون به لم ترو عنهم أحاديث كثيرة ، وكان بعضهم لشدة احتياطه يذكر المسألة من الحديث وهو عالم به ، و لكنه لا يرفع الحديث ، و يكتفى بذكر المسألة التى اقتنع هو بثبوتها وقوة سندها ، و قد صرح الامام الدهلوى بهذا الموقف منهم قائلا :

سبب قلة الرواية عن الفقهاء :

« و كان بازاء هؤلاء (أى المحدثين الذين كانوا يكرهون الرأى) فى عصر مالك و سفيان و بعدهم قوم لا يكرهون المسائل ، ولا يهابون الفتيا ، و يقولون :

(١) سورة النساء الآية ٨٣ .

على الفقه بناء الدين ، فلا بد من إشاعته ، و يهابون رواية حديث رسول الله - ﷺ - و الرفع إليه ، حتى قال الشعبى : على من دون النبى - ﷺ - أحب إلينا ، فان كان فيه زيادة أو نقصان كان على من دون النبى - ﷺ - وقال إبراهيم : أقول قال عبد الله ، وقال علقمة أحب إلى ، وكان ابن مسعود إذا حدث عن رسول الله ﷺ تربد وجهه وقال : هكذا أو نحوه ، (١) (٢) » .

و لذلك نرى بعض الأجلة من الصحابة كالخلفاء الأربعة و الفقهاء المفتين منهم ابن مسعود وزيد بن ثابت - رضى الله عنهم - قلت الرواية عنهم رغم طول صحبتهم و ملازمتهم للرسول - ﷺ - و كثرت عنهم فتاواهم و أقوالهم فلا يمكن أن يكونوا فى أكثر ما يقولون مجتهدين بآرائهم ، بل إنما يكتفون بالقول المفهوم من الحديث من دون أن يسندوه و يروه حديثاً ، (٣) .

و قد كانت هذه الظاهرة - فى قليل أو كثير - موجودة فى الأئمة الفقهاء لاسيما الامام أبا حنيفة ، فان ما يروى عنه من المسائل و الأقوال و الفتاوى لم تصدر آراء مجردة حاشاه من ذلك ، إنما كان يعتمد على الأحاديث المتوفرة لديه ، و لم تكن هى قليلة ، يجدها الباحث مبثوثة فى ثنايا كتب الفقه و الفتاوى ، و هكذا كان حال الامامين القدوتين أبى يوسف و محمد .

« يتبع »

(١) أخرج هذه الآثار الدارمى فى السنن .

(٢) الانصاف ص ٥٧ .

(٣) انظر البحث القيم النافع فى هذا الموضوع فى أعلام الموقعين : للامام ابن القيم ج ٤ ص ١٢٨ طبع منير الدمشقى ، فقد أثبت أن آراء الصحابة - رضى الله عنهم - مأخوذة من مشكاة النبوة إما نصاً أو فهماً واستنباطاً .

القرآن كما يراه الغربيون

الأستاذ صدر الحسن النـــدوى

هنا عدة اعترافات للغربيين الذين تدبروا الآيات القرآنيـــة و وصلوا إلى النتائج الايجابية نقل هنا اعترافاتهم :

يقول السير وليم مور (Sir William Muir) فى كتابه . . . . « حياة محمد » (Life of Mohamad) :

« لم يمض على وفاة محمد ربع قرن حتى نشأت منازعات عنيفة ، و قامت طوائف ، و قد ذهب عثمان ضحية هذه الفتن ، و لا تزال هذه الخلافات قائمة ، و لكن القرآن ظل كتاب هذه الطوائف الوحيد ، إن اعتماد هذه الطوائف جميعاً على هذا الكتاب تلاوة ، برهان ساطع على أن الكتاب الذى بين أيدينا اليوم هى الصحيفه التى أمر الخليفة المظلوم بجمعها و كتابتها ، فاعله هو الكتاب الوحيـد فى الدنيا الذى بقى نصه محفوظاً من التحريف طيلة ألف و مأتى سنة (١) » .

و يقول البروفيسور وهيرى (Wherry) فى تفسيره للقرآن : « إن القرآن أبعد الصحف القديمة بالاطلاق عن الخلط و الالحاق وأكثرها صحة وأصالة (٢) .

و يقول الدكتور بامر (PALMER) فى كتابه الجدير بالقرأة (The Quran Introduction) « لم يزل النص القرآنى الذى رتبه عثمان هى الصحيفة

(1) Life of mohammad ed 1912 P' 22'23 .

(2) Wherry vol I P. 249

البعث الإسلامى

المتلقاة بالقبول المعتمد عليها عند المسلمين (١)

و يقول لين بول (Stanely Lane Poole) « نزل القرآن فى عصر خيم الدنيا جو من الجاهلية و الظلمات و قد تلاشت المثل الخلقية ، فقام القرآن بطمس هذه الضلالات التى سادت الدنيا منذ قرون ، إنه علم الانسانية المثل الخلقيـة العليا و الحقـائق و العلوم ، و غير - بتربيته الفذة - الظلمة عادلين ، و الوحوش زهاداً عابدين ، لو لا القرآن لاضمحلت المثل الانسانية و لما بقى للانسانيـــة إلا اسمـــه » .

ويقول : « إن أكبر ما يمتاز به القرآن ، أنه لم يتطرق شك إلى أصالته إن كل حرف نقرأه اليوم نستطيع أن نثق بأنه لم يقبل أى تغيير منذ ثلاثة عشر قرناً(٢) » .

و يقول البروفيسور هربرت وائل و هو يعبر عن انطباعاته حول كتاب الله العظيم .

« القرآن ملئ بالمعارف والحكم ، إنه قام بتغيير المجتمع البشرى إلى حد مدهش ، الذين تدبروا آياته و محتوياته ، شهدوا بأنه نظام كامل وقانون شامل للحياة ، ليست ثمة ناحية من نواحى الحياة إلا و فيها هداية للقرآن ، و أرى السعادة فى الدنيا و الفوز فى الآخرة لمن اهتدى بهديه و اقتبس من مشكاته .

يقول البروفيسور (Edward Gibon) عن القرآن الكريم :

« القرآن يدل على الوحدانية دلالة واضحة ، و كل رجل منصف مضطر إلى إظهار هذه الحقيقة ، إن القرآن هو قانون الهداية ، بحيث لا مثيل له ، تعاليمه تنسجم مع الطبيعة البشرية ، و هو يحتل مكانة مرموقة من حيث تأثيره . إنه قام بتغيير

(1) The Quran introduction P. 7 .

(٢) النبى الخاتم للأستاذ أبى الحسن على الحسنى الندوى ص ٤٣ - ٤٤ .

المجتمع العربى الذى بلغ فى الهمجية غايتها، ملأ قلوبهم بعاطفة من الحب والمؤاساة، و فرض الحظر على القتل و النهب، و هذا هو دوره البارز الهام فى هذا المضمار، إذا إراد أى فيلسوف عبقرى احتضان أى ديانة فأشير عليه باعتناق الاسلام (١).

يقول الأديب الانجليزى (Gorge Bernhardt shaw) وهو يعترف بخلود التعاليم الاسلامية و يشيد بذكر القرآن :

« القرآن هو الكتاب الوحيد الذى يستطيع أن يساير الركب البشرى فى مقتضياته كلها فى عصوره المختلفه بحكم شمول تعاليمه، وهو يستطيع أن يستلفت أنظار البشرية إليه فى كل عصر ومصر، وأقول بصراحة إن القرآن - ليس غير - يستطيع أن يحل معضلات قضايا النوع البشرى المعقدة، بحيث يتسير للانسانية أن تصل إلى غايتها المنشودة من الطمأنينة والهدوء اللذين تتسكع الانسانية فى البحث عنهما منذ قرون (٢).

و يقول الأستاذ جورج تليا مؤلف «أيام فى الشرق» طبع فى لندن ١٩٥٦م

« إن فى صالحنا نحن الأوربيين أن نعتبر القرآن وحياً سماوياً و نتأمل فى معانيه . بدلا أن تتيه بنا الأفكار فى مجاهل تحكمها الأوهام و العصبيات »

و تقول الأستاذة نيبأ أبوت أستاذة الدراسات السامية بجامعة الملكة كالفورنيا فى كتابها « الخط العربى » .

القرآن مهما كان محتواه ، و لكنه ليس من صنع بشر ، فاذا أنكرنا كونه من الله فمعناه أننا اعتبرنا محمداً هو الاله » .

ويقول الأستاذ جون رسك فى كتابه « السمو البشرى » نيو يورك عام ١٩٣٢م

« القرآن كتاب وضعه محمد هذا هو إيماننا به ، و لكنه عمل فوق مستوى البشر

(١) جريدة « تعمير حياة » ١٠ يونيو ١٩٧٩م الصادرة من ندوة العلماء .

(٢) نفس المصدر .

أن يأتى مثله ، هذا ما نرغم على الاعتراف به » .

و يقول الأستاذ دكسن روز مقدم ترجمة جورج سيل طبع عام ١٩٣٢ نيويورك « القرآن لا يزال مصدر الاشعاع والكتاب المقدس عند المسلمين، ومهما اختلف المسلمون فى تفسيره ولكنهم لم يختلفوا فى كونه وحياً من الله ، بل أجمعوا على أنه كلام الله لفظاً و معنى » .

و هل يستحق القرآن هذا الاعظام ؟ أقول نعم : ، هو كذلك (١) .

و يقول الدكتور كارل بروكلمان (Brockel mann) « و قد بلغ هذا المصحف العثمانى فى مدة وجيزة مقام الوثوق و الاعتماد من قبل جميع المسلمين دون حاجة إلى قوة أو إكراه (٢) » .

و تقول الدكتوراه لورافيشيا فاغليرى :

« إن معجزة الاسلام العظمى هى القرآن الذى ينقل إلينا الراوية الراسخة غير المنقطعة من خلال أنباء تتصف بيقين مطلق : إنه كتاب لا سبيل إلى محاكاته . . إن آياته على مستوى واحد من البلاغة ، و هو ينتقل من موضوع إلى موضوع من غير أن يفقد قوته ، إننا نقع هنا على العمق و العذوبة معاً ، و هما صفتان لا تجتمعان عادة ، فكيف يمكن أن يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد و هو العربى الأمى .

« و تقول : و لا يزال لدينا برهان آخر على مصدر القرآن الالهى فى هذه الحقيقة هو أن نصه ظل صافياً غير محرف طول القرون التى تراخت ما بين تنزيله

(١) ترجمات معانى القرآن الكريم و تطور فهمه عند الغرب ص ٨ للدكتور عبد الله عباس الندوى .

(٢) تاريخ الأدب العربى ج ١ ص ١٤٠ الطبعة الثانية دار المعارف مصر .

و يوم الناس هذا ، و أن نصه سوف يظل على حاله تلك من الصفاء و عدم التحريف باذن الله ما دام الكون (١) » .

و يقول البروفيسور هتى (Hitti) « القرآن هو أحدث الكتب التى لها قيمة كبرى فى التاريخ البشرى كما أنه أكثر قراءة و تلاوة من جميع الكتب التى شهدها العالم البشرى (٢) .

لكن الحقيقة الكبرى التى لا يمكن أن نغض البصر عنها ، أن الغربيين مع هذه الاعترافات كلها يرون القرآن أكبر عائق فى سبيل السيطرة على العالم الاسلامى ، و يريدون إزالة هذه العرقلة بكل ما فى وسعهم من عدة و عتاد ، لأن القرآن يستمد منه المسلم تلك القوة الجبارة التى يقاوم بها روح الحضارة الغربية بجميع أنواعها و أشكالها .

كتب هنرى هملتن تامس (Henry Hamilton Thomas) أحد كبار الموظفين الانكليزى فى بنغال (فى الهند) فى كتابه « ثورة الهند الماضية و سياستنا المستقبلة » (Late Ribellion in India and our future policy) الذى ألفه فى سنة ١٨٥٨م يعنى بعد الثورة بسنة فقط ، و الكلمة تشرح عقيدة الانجليز و وجهة نظرهم عن المسلمين و القرآن ، يقول :

« أن المسلمين لا يستطيعون أن يكونوا رعية و فية لحكومة تدين بغير دين الاسلام ، لأن ذلك مستحيل فى ظل أحكام القرآن » .

و يشير إلى تلك الحقيقة الأستاذ المهتدى محمد أسد فى كتابه القيم (Islam on the cross Road) وينقل رأى غلادستون وزير بريطانيا الأول ، إنه يقول:

(١) « الرسول ﷺ فى كتابات المستشرقين » تاليف الأستاذ نذير حمدان ص ٣٧ .

(٢) تاريخ العرب ص ١٢٦ ط ١٩٣٧م .

« إن المدنية الأوربية قائمة فى أساسها على المدينة الرومانية الوثنية ، و هى لم تأخذ من النصرانية - التى اعتنقتها لأسباب قاسية قاهرة سوى الطلاء الخارجى فحسب ، ثم إن المدنية الأوربية لا تزال فى واقعها وثنية مادية لا تؤمن بغير القوة ، و المثل العليا ، تلك الأسس التى خلقت فى الاسلام ، مناعة ذاتية جبارة .

و لا ريب فى أن هذه الحقيقة الثمينة قد انكشفت « لغلا دستون » وزير البريطانية الأول و أحد موطدى أركان الامبراطورية فى الشرق - حينما قال : « ما دام هذا القرآن موجوداً فلن تستطيع أوربة السيطرة على الشرق و لا أن تكون هى نفسها فى أمان (١) .

و يقول جون تاكلى :

« يجب أن نستخدم كتابهم « القرآن الكريم » وهو أمضى سلاح فى الاسلام ضد الاسلام نفسه ، لنقضى عليه تماماً ، يجب أن نرى هؤلاء الناس أن الصحيح فى القرآن ليس جديداً و أن الجديد فيه ليس صحيحاً (٢) .

و قال وليم غيفورد بلغراف الانجليزى ، كلمته المشهورة ، و لخص فى هذه الكلمة عداء الغربيين للقرآن :

« متى توارى القرآن و مدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربى يتدرج فى سبيل الحضارة التى لم يبعده عنها إلا محمد و كتابه (٣) .

(١) الاسلام على مفترق الطرق ص ٨٢ طبعة ثالثة .

(٢) أباطيل و أسمار محمود محمد شاكر ص ١٩٦ .

(٣) التبشير و الاستعمار ص ٤٠ .

صور و أوضاع

نحو استراتيجية جديدة للعمل الاسلامى

واضح رشيد النـــدوى

الانفعال محمود و ممقوت فى وقت واحد ، و الانفعال المحمود يدفع الانسان إلى العمل ، و يثير فيه غيرة و أنفـــة يوطد العزم بها على تغيير ماتأباه طبيعته و الحصول على ما تهواه نفسه ، بحيث إنه لايستسلم للتهور ، و التسرع إلى أعمال بدون دراســـة العواقب و الملابسات ، بل يخطط و يناقش و يحكم رأيه و يسير على منهج مدروس لا يفضح نفسه ، و لا غيره و لا يتملكه التطرف أو التشنج الفكرى بسبب الانفعال الشديد كما يصيب الرجل الساخط الحانق الذى إذا ثارت حفيظتـــه فقد التوازن و طريق الحكمة و كانت عاقبته الخيبـــة و التراجع و الندم .

أما الانفعال الممقوت فهو ما ينتج عن الحساسية الزائدة التى تجعل الانسان مثل الكبريت الذى يشتعل بأى احتكاك و يشبه فى شدة التأثر القطن الذى يشتعل بأى شرارة ضعيفة .

المؤمن صابر ومثابر ومرابط يهتدى بالحكمة فى سائر أعماله و يبالى العواقب فى سلوكه و يختار الأفضل و الأدوم ، و الأضمن للنتائج الحسنة ، و قد كان صلح الحديبية أسوة فى تاريخ الاسلام ، تغلبت فيه الحكمة و التدبر و عدم الاستسلام للانفعال الزائد وقد شوهد قدر من الانفعال فى تصرف بعض المسلمين لكنهم قبلوا حكم القيادة الحكيمة و اطمئنوا إليها و لو كان للانفعال غلبـــة فى هذه المرحلة ، لكانت العواقب غير العواقب التى وصلت إليهـــا المسيرة الاسلاميـــة ، فكان فتح مكة تتويجاً للموقف الحكيم ، الذى اتخـــذه المسلمون فانقلبت المعاهدة التى وصفها

البعض بالدنيئة لغلبة الانفعال ، إلى عنصر تغير به مجرى الأحداث التى كانت قمته فتح مكة ، و قد تجلت الحكمة بأروع مظاهرها فى فتح مكة ، و يعطى هذا اليوم العظيم أيضاً فكرة أن سلوك المسلمين لابد أن يكون تابعاً للحكمة والروية وأن يكون متصفاً بالاتزان والاعتدال ، ويكون رائده وضوح الرؤية ورعاية المصلحة الكبرى والتمسك بالمبادىء وعدم التسرع إلى كسب النتائج ، ولذلك وصف طريق الدعوة بأنه طريق طويل و محفوف بالمكاره ، و يدعو القرآن الكريم إلى تحمل الأذى و إلى عدم الانفعال بسلوك الاعداء فيقول . « و لا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، و اتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » .

إن الاعلام الاسلامى وعمل الدعوة فى العصر الحاضر يخشى أنه يسير طريق الانفعال الزائد نتيجة للخيبات المتواصلة و معاكسات الأصدقاء و معاداة الأعداء ، فيستسلم العاملون لوسائل تقلب الموازين أحياناً و تأتى بنتائج معكوسة ، و قد كان مثل هذا السلوك سبباً للقيود الجديدة التى فرضت على حرية العاملين للاسلام فى البلاد الاسلامية و كانت الثورة الايرانية و موقف زعمائها الانفعالى و استسلام العاملين للاسلام فى البلاد الأخرى للدعاية الايرانية مسئولا إلى حد كبير عن الاجراءات العنيفة التى اتخذت فى البلاد الاسلامية فاستغلت وسائل الدعاية العالمية المعادية للاسلام الفرصة لشن حملة مجددة ضد ما وصفته بالتطرف الاسلامى و عرضت الوكالات الأجنبية الأحداث فى مختلف البلاد الاسلامية كالبلبلة الفكرية ، و برزت الاجراءات التى اتخذتها الحكومات ، و لتصعد الانفعال فى بعض العاملين ، لاثبات أن الاسلام دين عنف و تطرف ، و صورت هذه الوكالات الأحداث الواقعة إيجابياً و سلبياً بطريق يحمل العالم على الاعتقاد بأن مصير الحضارة فى خطر إذا تغلبت هذه القوى التى تسعى إلى العودة إلى الاســـلام و لا تتردد فى اتخاذ وسائل تسبب خسائر و تقلق التوازن .

و من جهة أخرى إذا ألقينا النظر على الصحف الاسلامية انكشف لنا أنها أيضاً خاضعة للانفعال الشديد فهى تحمس وتشعل وتثير عاطفة الانتقام وتحمل على التفاعل الشديد فلا يجد القارىء فيها إلا وصفاً للهدم و الكيد و التآمر ما يبعث أحياناً على خيبة الأمل و فقدان الأعصاب فى الاخوان الذين يجهدون للاسلام ، فان عرض المساوىء فقط يثير الشكوك و يزيل الثقة و يخيب العاملين أو يحملهم على انتهاج طرق انتحارية .

إن هذا الموقف سواء كان فى خطب الجمعة أو فى أعمدة الصحف الاسلامية يثير البغضاء و الشحناء من جهة و يثبط الهمم من جهة أخرى و يعرض العاملين للاسلام للمقت و العداء و يبلغ هذا الموقف التنفير و التشديد أكثر مما يبلغ التبشير و التيسير .

فلنراجع استراتيجيتنا من حيث المجموع ونحاسب بين ما كسبناً وبين ما خسرنا .

إن العمل للاسلام يختلف فى طبيعته عن العمل السياسى أو العمل المادى الآخر ، الذى يوزن و يقاس فيه العمل بالنتائج ، فان سلوك المسلم مقيد و منظم من أوله إلى آخره بالمبادىء الاسلامية فما يبدو فيه دنيئة يثبت انتصاراً ، وفتحاً ، إذا كان بروح الاسلام ، وروح الانقياد للقيادة الحكيمة ، و الايمان بوعد الله ، و مسايراً لسنة رسوله ، وما يبدو الانتصار يثبت دنيئة حقيقة إذا تحقق الانتصار بسير طريق لا يتناسب مع طبيعة العمل الاسلامى .

كان من أكبر أخطاء العاملين للاسلام اليوم أنهم حولوا الدين سياسة ، وقد كان يلزمهم أن يحولوا السياسة ديناً ، فهو كجعل الصلاة رياضة ، و الحج مؤتمراً ، و الصوم حمية ، وقد كان من عادة السلف أن يحولوا أعمالهم الدنيوية دينا ، فكانت تجارتهم دينا ، و حكمهم ديناً ، و كسبهم للرزق دينا ، و حتى الحياة الزوجية دينا لتمسكهم بالمبادىء و الحقوق الاسلامية ، واقتدائهم بالسنة ، وقافين عند حدود الله ،

مستبشرين موفقين ، يجدون حلاوة قلبية و إن اعتبرهم الحمقاء الماديون أنهم خاسرون ، و العاقبة للتقين .

الاتحاد بين الزعماء الأواحد

مشكلة المشاكل أن كل نكسة يواجهها العالم تؤدى إلى مزيد من الانشقاق و التمزق ، و التحارب بين الأشقاء فيقضى على البقية الباقية من القوة ، و الطاقة البشرية و العتاد الحربى ، و يعكر الجو بطريق تختفى فيه الطرق ، وتبرز متاهات جديدة ، و ترهات جديدة .

حدث ذلك فى عام ١٩٦٧ ، عندما تحطمت القوة الحربية الجماعية للعرب ، فبدأت مرحلة التلاوم و كشف فيها عن خيانات فى القيادات ، و انقسمت الدول العربية فيما بينها ، وتلا ذلك سفك دماء الفلسطينيين أنفسهم لأنهم بجراء شعورهم بالخذلان حاولوا تأنيب القيادات السياسية التى تركتهم فى العراء و واجهوا الطرد من كل بلد ، فكانوا ناقمين من كل قائد .

و اتسع هذا الخليج باكتشاف خيانة وزير الدفاع السورى حافظ الأسد ، و صرح أحد الزعماء العرب فى مؤتمر عقد لمعالجة المشكلة التى نشأت من الاحتلال الاسرائيلى ، بأن حافظ الأسد سلم الجولان بنفسه و تسلم بذلك ثمناً باهظاً ، و أن لديه وثائق تثبت ذلك ، وفى مؤتمر آخر كشف أحد الزعماء أن الرئيس عبد الناصر هو الذى أصدر أوامر بالقضاء على الفلسطينيين فى الأردن لتحطيم قوتهم ، و يقال إن النوبة القلبية التى أصابته كانت نتيجة لاكتشاف هذا السر المكتوم و كشف الغطاء عنه .

أما الرئيس القذافى فهو دائماً يتنصل من المسئولية و يلوم غيره و يساعد المنشقين ، و يفضل أن يعيش وحده ، فى برجه العاجى ، و كان ذلك موقفه فى حرب رمضان ١٩٧٣م التى خذل فيها مصر فى خضم المعركة الحاسمة بسحب قواته من مصر ، فبدأت المعركة الكلامية بين مصر و ليبيا فى الوقت الذى كانت القوات

المصرية تحارب فى السويس و أقامت أمريكا جسراً جوياً لدعم القوات الاسرائيلية و منعها من أن تلتهمها القوات المصرية المتقدمة ، فحوصر الجيش المصرى الثالث ، و أجبرت مصر على دخول المفاوضات ، و اثبتت الأحداث أن الأسد و القذافى و أمثالهما لم يكونوا إلا أسد الورق ، إذا لم نقل ما قاله الشاعر العربى عمرو بن معديكرب عن حلفائه الذين خذلوه .

فلم تغن جرم نهدها إذ تلاقيا ... و لكن جرما فى اللقاء ابذعرت

ظللت كأنى للرماح دريئة ... أقاتل عن أبناء جرم و فرت

كان الشعور بالخذلان من الأخوان و الأصدقاء الذين يسلكون سياسة « المهارشة » ثم ينسحبون من الميدان عند ما يحمى الوطيس هو الذى دفع أصحاب النوايا الحسنة ، و أصحاب جد على الابتعاد عن المغامرة و إلا فان العالم الاسلامى لا يخلو من أصحاب غيرة وحمية عربية بل أصحاب غيرة وحمية إسلامية .

إننا لا نستطيع أن نستسلم للرأى القائل بأن العالم الاسلامى كله خال من أكفاء للقيادات المخلصة القادرة على حل المسألة ، فان هناك قادة يحملون قلوباً متحمسة ، دافئة ، لكنهم يمتنعون عن الاقدام لموقف الخذلان من الأصدقاء و الأشقاء فلو كان أحد منهم واثقاً بأنه لن يترك فى الميدان وحده و سيكون معه العالم الاسلامى مرتفعاً عن المصلحة القومية والسياسية الذاتية و يقف صفاً واحداً وصوتاً واحداً ، باخلاص وثقة ، فان العالم يقدر على أن يقدم من يواجه المشكلة ، ويغير مجرى الأمور .

لقد تحققت هذه القيادة لصلاح الدين الأيوبى ، عند ما تغلبت عليه العاطفة الايمانية و كان فى موضع القيادة فتغلب على المشاكل الداخلية و تمكن من تصفية المعارضة و المعاكسة من الاخوان فملك قوة تتحدى أوروبا كلها ، ثم جعلها راكعة أمام قدميه .

تحقق ذلك عند ما أثبت صلاح الدين أنه ليس بزعيم مصرى ، و لا شامى ، و لا كردى ، و إنما هو زعيم إسلامى يحارب للاسلام و من أجل الاسلام ،

و يحارب أعداء الاسلام و أعداء المسلمين ، وأثبت أنه لا يحارب لنفسه ولا لقومه ، و إنما يحارب للمسلمين و للعرب بأجمعهم ، فتلاشت أمامه القيادات المحلية التى كانت تقف فى طريقه و ذابت .

إن المسألة اليوم هى أن كل زعيم من الزعماء زعيم أوحد ، فى بلده ، فكيف يتم الاتحاد بين الزعماء الأواحد ، و إذا كان هذا الزعيم يمثل بلاده على الأقل كان يمكن الاتحاد ، و لكن الواقع عكس ذلك ، فان كل زعيم يمثل نفسه وذاته و يعبد نفسه و يريد غيره أن يركع أمامه ويؤلهه ، و لذلك تفشل المؤتمرات ، و مجهودات الوساطه .

لقد احتلت إسرائيل ثلث لبنان ، و احتل الصليبيون الثلث الآخر ، وجعلوه خالصاً لهم ، و الثلث الذى يخضع للمسلمين لا يزال مسرحاً للاشتباكات بين فرق متحاربة للفلسطينيين أنفسهم من جهة و بين الفلسطينيين والسوريين من جهة أخرى ، و تفيد الأنباء الأخيرة أن ثورة داخلية اندلعت فى صفوف القيادة الفلسطينية ، فهناك يسارى ، ويمينى ، ومتوسط ، و هناك سورى و عراقى ، و هناك عرفاتى ، وغير عرفاتى ، و كل فريق له زعيم يعتبر نفسه الزعيم الأوحد .

فهل يحتاج هؤلاء المتحاربون إلى درس أكبر من درس صبرا و شتيلا ، و احتلال إسرائيل . و مطاردة الفلسطينيين .

و الذين يؤيدون هذه الفرق إنما يلقون النفط على النار ، و التى لا تحرق بلداً ، و إنما تلتهم البلاد العربية كلها .

لقد جلب موقف هؤلاء المتلاعبين بمصير الفلسطينيين و العابثين بمصير بلادهم منذ عهد الثورة العربية الأولى خزياً وعاراً كبيراً للمسلمين فى العالم ونكس رؤوسهم أمام مواطنيهم من غير المسلمين ، و لا يعرف هؤلاء الزعماء المتفرعنون و أدعياء القيادة الذاتية الذين يعيشون فى البرج العاجى بعد أن سدوا سائر المنافذ كم يضحك عليهم العالم ، و يهزأ بهم ، ولكن كيف يبصر من وضع على عينيه غطاء ، وكيف يسمع من كان فى أذنيه وقر . ولكن لكل شيئ عاقبة ، ولا يفلح عمل المفسدين .

رحلة إلى « بتكل » أقصى جنوب الهند

سعيد الأعظمى الندوى

لأول مرة وصلت إلى مدينة « بتكل » فى ٩ / شعبان ١٤٠٣هـ المصادف ٢٣/ مايو ١٩٨٣م، على دعوة من الجامعة الاسلامية و أمينها العام فضيلة الأستاذ الحاج محى الدين منيرى للحضور خصيصاً فى الحفلة السنوية لنهاية العام الدراسى فيها، و بذلك تحققت أمنية قديمة راودتنى منذ أن سمعت بأخبار هذه المدينة و أهلها المسلمين، و خاصة بعد قيام الجامعة الاسلامية فيها التى أصبحت فرعاً من فروع ندوة العلماء فى هذه المنطقة، و حظيت بعناية رجالها الكبار وباهتمام سماحة مولانا الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى الذى أولاها من رعايته الخاصة بها، حيث اعتنى بشئونها التعليمية و التربوية، وبصرف أنظار المسئولين عن الجامعة والمسلمين فى هذه المدينة إلى أهمية التعليم الدينى وما له من نتائج طيبة فى تربية الجيل المسلم، وما له من دور كبير فى تنمية روح الايمان و البطولة فى نفوس الشباب المسلم، وما له من ضمان فى بقاء الايمان و رسوخ العقيدة فى القلوب.

وجدت المنطقة بكاملها أجمل مما كنت أتخيلها، ففى شرقها جبال خضراء، و حدائق النارجيل بين الأودية التى تخللها بشكل طبيعى مثير جداً، و فى الغرب المحيط العربى الذى يزخر بأمواجه الجميلة و يمثل منظراً خلاباً للغاية، و يذكر بفترة التاريخ الأولى التى رست فيها سفن المسلمين العرب على هذا الساحل الممتد إلى مسافة طويلة، فاتخذوه موطناً ومركزاً للدعوة، و عن طريقهم انتشر الاسلام فى هذه المنطقة الجميلة، و انبثت ذريتهم فيها فكانوا دعاة الاسلام فى سائر المناطق الجنوبية، و بفضل مساعيهم الدعوية نالت دعوة الاسلام سبيلا إلى القلوب، و دخل الناس فى دين الله أفواجاً، ولذلك فان مسلمى الجنوب وخاصة مسلمى بتكل الذين ينتمون إلى قبيلة « نوائط » و يعرفون بهذا الاسم، إنما هم سلالة العرب

الذين حطوا رحالهم فى هذا الساحل دعاة وتجاراً، ففى حياتهم الفردية و الاجتماعية عادات تؤكد انتماءهم إلى الأسر العربية، و لا تزال فيهم بقايا آثار الحياة العربية الخالصة من السخاء والأريحية والتدين، والصلاح، والاقبال على الخير والفضيلة، و كثرة القراءة للقرآن الكريم وتحفيظه، والتمسك بالحجاب، وما إلى ذلك من عادات إسلامية طيبة.

حظيت بتكرمة مسلمى بتكل بوجه عام و بحفاوة المسئولين عن الجامعة بوجه خاص، و قد وضعوا لى برنامجاً خاصاً يغطى أيام إقامتى فيها، من بين زيارات و مشاهدات و لقاءات محاضرات.

زرت المناطق الملحقة بهذه المدينة ورجعت عنها بمتعة نفسية ومعلومات تاريخية، فى صباح مبكر ليوم جمعة خرجنا إلى قرية « مانكى » التى هى موطن أخينا الشيخ القاضى محمد فاروق الندوى، ومررنا فى الطريق إليها بقرية « هوناور » التى كانت قاعدة الملك المسلم العربى جمال الدين قبل نحو ثمانية قرون، و قد أشار إلى ذلك ابن بطوطة فى رحلته إلى الهند، ثم زرنا قرية « هوسبتن » التى كانت مقر المسلمين النوائط قديماً، و لكن ملكة هندوسية غزت هذه المنطقة و شنت حرباً شعواء عليها، حتى غادرها المسلمون و التجأوا إلى قرى ومناطق مجاورة، وقد رأينا هناك آثار مسجد وقع ضحية الحملة المنكرة، و لقينا فى قرية « مانكى » جماعة من أهلها المسلمين، وقد تم فيها افتتاح منزل جديد لأحد الاخوة الكرام و إلقاء كلمة بهذه المناسبة، كما تشرفت هناك بزيارة منزل الأخ القاضى الشيخ محمد فاروق وقضاء وقت فيه معه، و زرنا منزل الأخ الأستاذ جعفر صادق و جلسنا مع والده الكريم وقد تبادلنا الفرح بهذا اللقاء، و تناولنا عنده بعض المرطبات والفواكه، فجزاه الله خيراً، و هنا مدرسة إسلامية لاتزال فى دور البناء.

وزرنا قرية « شيرالى » على دعوة من الحاج محمد على والأخ ناصر الندوى

حيث تناولنا العشاء فى بيت الأخ ناصر و صلينا فى مسجد القرية ، و زرنا قرية « مرديشور » ومدرسة تنوير الاسلام فيها ، والتقينا أهلها المسلمين والمسئولين عن المدرسة الاخوة الكرام محمد على باشا ، و الفاضل محمد حسين الجامعى و الشيخ أبو محمد ، و قد تعشينا معهم فى المدرسة ، و هذه القرية معروفة باتجاه عدد من مسلميها إلى البدع و الخرافات ، و قد وفقنى الله لالقاء كلمة فى مسجدها بعد صلاة المغرب تناولت الموضوع بحكمة أحدثت تأثيراً فى القلوب .

و قد كانت أول كلمة عامة ألقيتها أمام جمع من المسلمين فى المسجد السلطانى الذى بناه السلطان « تيبو » فى القرن ١٨م ، و كانت مبعث ارتياح و سرور ، و التقيت بعد نهاية الحفل جمعاً من الناس ، و تشرفت برؤية و لقاء فضيلة قاضى البلد الشيخ محمد أحمد الخطيبى حفظه الله ، الذى شرفنا بالدعوة على الفطور فى اليوم التالى فى منزله العامر مع حشد كبير من وجهاء و أعيان البلد .

و تشرفت بالقاء خطبة الجمعة فى ١٤ / شعبان فى جامع حى النوائط الكبير ، و كانت بمناسبة ليلة النصف من شعبان ، و قد فتح الله لى فكانت الخطبة مستفيضة نالت آذاناً صاغية ، و قلوباً واعية ، و أرجو الله سبحانه أن يصفح عنى زلاتى ، و يتقبل منى كلماتى المتواضعة .

و كذلك لا ننسى ما قد أقامه المسئولون عن الجامعة الاسلامية و المتصلون بها من مآدب سخية إكراماً للضيف ، فقد حضرنا مأدبة الفطور فى منزل الحاج الدكتور على ملبا أمين عام الجامعة الاسلامية سابقاً و طعام الغداء فى بيت الأخ الكريم محمد على ، ومأدبة الغداء السخية التى أقامها الأخ العزيز الأستاذ عبد العزيز الندوى فى منزله العامر دعا إليها جمعاً كبيراً من الأعيان ، و مأدبة غداء فى بيت الأخ أطهر الندوى ، كذلك مأدبة الغداء فى منزل الحاج الشيخ محى الدين منيرى أمين عام الجامعة ، ومأدبة العشاء التى ضمت جمعاً كبيراً من أعيان البلد فى بيت الأخ

العزيز طلحة ، و دعوة العشاء فى بيت الأخ الشيخ محمد رمضان الندوى أستاذ الجامعة ومأدبة الشاى فى منزل معالى محمد يحى الوزير السابق لولاية كرناتك ، وفى منزل الأخ الكريم الحاج مختار أحمد جاويد ، وفى منزل الشيخ محمد إقبال ملا الندوى ، وفى مقر الأخ الأستاذ ارشاد على الندوى ، أستاذ الجامعة ، وكانت دعوة الأخوين العزيزين محمد أيوب الندوى ومحمد إقبال الندوى (نائب القاضى) فى منزلهما خارج المدينة مسك الختام ، فقد تناولانى بالاحتفاء البالغ الكريم ، جزاهما الله خيراً .

وقد نظم الأمين العام للجامعة الشيخ محى الدين منيرى عدة لقاءات ، مع أعضاء المجلس التنفيذى للجامعة ، وقد تحدثت إليهم بما فتح الله لى من كلام موضوعى حول المسئولية التى نيطت بالجميع كأعضاء أهم عمل ترنوى لابتاح لكل شخص ، وقد تأثر الجميع و أحس بمسئوليته التى يتحملها ، و كذلك لقاء آخر مع أساتذة الجامعة ، و قد ألقيت إليهم كلاماً يثير الانتباه إلى الواجب الذى يحمله الجميع مع الاخلاص الكامل لله تعالى ، و دافع التضحية و الايثار فى سبيل الله تعالى .

و فى ١٥ / شعبان عقدت الحفلة السنوية للجامعة فى صالة الطعام الواسعة الكبيرة ، و ضمت عدداً كبيراً من أعيان البلد و وجهائه و أعضاء المجلس التنفيذى و المعنيين بشئون التعليم و التربية فى البلد و خارجه ، وطلبوا منى رئاسة الحفل . وإلقاء كلمة فى الأخير ، وقد وفقنى الله تعالى لأداء الواجب بشئ كثير من الاهتمام ، و انتهت الحفلة بنجاح كبير ، و الحمد لله .

كما قد تشرفت بلقاء العالم الجليل الشيخ بهاء الدين الندوى فى منزله وهو من أبناء الندوة القدامى و من زملاء الصف لسماحة الشيخ الندوى ، و قد احتفى بى ، و أهدى إلى بعض مؤلفاته ، و خاصة ما ألفه حول تاريخ بتكل وجنوب الهند ، و زرنا رئيس الجامعة الاسلامية السيد د - ١ إسماعيل ، و هو رجل كبير السن أقعدته الشيخوخة فلا يكاد يخرج من بيته ، وقد استقبلنى بوجه باسم ، وفرح باللقاء .

★ إشارات هامة حول النشاط التعليمى والاجتماعى فى بتكل :

١ـ الجامعة الاسلامية . أسسها الشيخ المرحوم عبد الحميد الندوى و تلاميذه النجباء ـ فى عام ١٩٦٢م ـ ١٣٨٢ه ، و افتتحها سماحة مولانا الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى ، وتحتوى على المراحل ، الابتدائية، والثانوية ، والعالية ، يبلغ عدد الطلاب إلى ٥٠٠ طالب ، وعدد المدرسين إلى ثلاثين مدرساً ، وعدد الموظفين إلى ١٥ ، موقعها واسع وجميل ، أما رئيسها الحالى فهو السيد د ـ ا ـ إسماعيل : و نائب الرئيس السيد محمد الصديق ، و السيد نثار أحمد ركن الدين ، و الأمين العام هو الحاج محى الدين منيرى ، و نائبه الحاج محمد على شيرالى .

لا تملك الجامعة عقاراً أو مورداً ثابتاً ، مصاريفها السنوية ثلاث مأة ألف روبية حالياً ، و تعتمد كلياً على تبرعات أصحاب الخير و عامة المسلمين .

٢ ـ جامعة الصالحات : لتعليم و تربية البنات المسلمات ، أسسها الحاج الشيخ محى الدين منيرى الذى يتولى إدارتها ، و نائبه الشيخ إقبال أحمد ملا الندوى ، و تشتغل بشئون التعليم و التربية فيها ١٢ مدرسة مسلمة ، منهاجها التعليمى ينقسم بين مرحلتين ، مرحلة تحتوى على ٥ سنوات ، وتلتحق إليها الطالبات بعد التخرج من المتوسطة ، ومرحلة ثلاث سنوات و تنتسب إليها الطالبات المتخرجات من الثانوية ، و تهتم الجامعة بتعليم اللغة العربية و العلوم الاسلامية و تركز على تفسير القرآن و شرح الحديث ، و يبلغ عدد الطالبات الآن إلى ٢٢٥ طالبة ، مصاريفها السنوية تتجاوز مأة و خمسين ألف روبية ، والجامعة تودى دوراً هاماً فى تربية العائلة المسلمة ، و إصلاح العقائد و العادات فى داخل البيوت المسلمة .

٣ ـ مجلس الاصلاح و التنظيم ، مضى على تأسيسه ستون سنة ، و يعتبر مؤسسة إصلاحية و اجتماعية ذات نشاط كبير ، و للمجلس مكتبة عامة يستفيد منها الناس ، اسمها مكتبة الصديق ، و قد وضع الحجر الأساسى لبناية المجلس الخاصة فى اليوم الأخير من زيارتى ١٦ / شعبان ، وحضرت المناسبة مع الحاج محى الدين

منيرى و معالى محمد يحى و السيد محى الدين المعروف بـ « مولانا » و قد ألقيت كلمات بالمناسبة ، و شاركتها مع أصحابها .

أما رئيس هذا المجلس فمعالى السيد محمد يحى ، والمجلس هدفه اجتماعى و دينى يهتم باسعاف المنكوبين و إمداد المحتاجين و الفقراء من المسلمين كذلك .

٤ ـ جمعية حامى المسلمين : جمعية تعليمية تهتم يرفع مستوى المسلمين التعليمى فهى تشرف على كلية هندسة ممتازة جداً يدرس فيها أبناء المسلمين وغيرهم على السواء ، كما أنها تشرف على مدرستين للتعليم العالى وكلية للبنات وكليات للعلوم والفنون والتجارة .

رئيسها السيد محى الدين المعروف بـ « مولانا » ، ونائب الرئيس الأول السيد عبد الغنى المحتشم ، والنائب الثانى الحاج محى الدين منيرى ، والأمين العام معالى السيد محمد يحى ، و السكريتر المساعد د ـ ه ـ شبير .

بتكل تشتهر بقراءة وتحفيظ القرآن الكريم فان أهلها يعتنون بتحفيظ القرآن الكريم رجالا و نساءاً ، و فى الجامعة الاسلامية مدرسة خاصة بتحفيظ القرآن الكريم ، ومدرسة أخرى فى حى النوائط يشرف عليها الحاج محى الدين منيرى ، ومدرسة ثالثة باسم (تعليم القرآن) فى قرية « تلغن غندى » المجاورة ، ويشرف عليها الأخ عبد القادر و إخوانه الذين يهتمون بتعليم و تحفيظ القرآن الكريم بين أبناء المسلمين فى هذه القرية .

هذه بعض انطباعاتى و مشاهداتى فى بتكل بايجاز ، و أرجو الله سبحانه أن أوفق إلى الاعتراف بالواقع على الدوام ، و الشكر لجميع المسلمين فى هذه المدينة التاريخية ، وخاصة للذين أتاحوا لى هذه الفرصة الغالية وأكرمونى بالحفاوة والتقدير ، و أشكر لمحب الجميع ، الرجل المجاهد الذى نذر نفسه لخدمة دين الله و نشر تعاليمه فى هذه المنطقة الشيخ محى الدين منيرى و إخوانه ومساعديه و للشيخ عبد العليم القاسمى ، كما أشكر جميع أساتذة الجامعة ، و خاصة الأخ الشيخ محمد خالد الندوى رئيس قسم الحديث فيها ، والأخ الشيخ فضل الرحمان عميد الجامعة ، وجميع طلاب الجامعة و أبنائها .